حنّا مينه

حين مات...النهد!

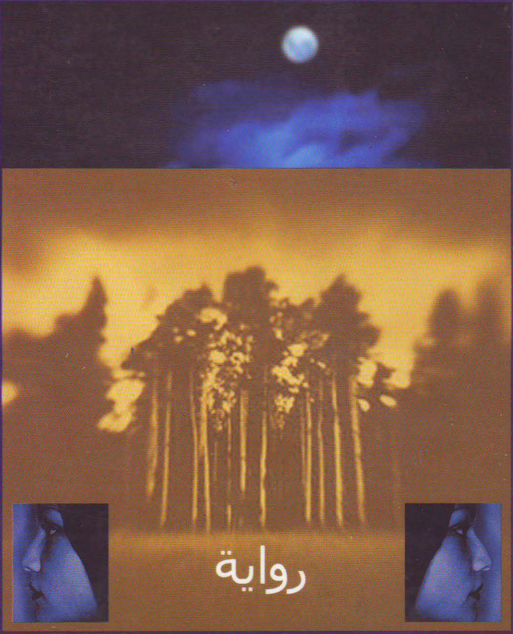

دار الآداب

حنّا مينة

حين مات النهد

رواية

دار الآداب - بيروت

حين مات النهد
حنّا مينة / روائيّ سوريّ
الطبعة الأولى عام 2003
حقوق الطبع باللُّغة العربيّة
محفوظة لدار الآداب

All rights in Arabic reserved to Dar al Adab (Lebanon). No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق باللُّغة العربيّة محفوظة لدار الآداب (بيروت). لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

I

الجحود!

تنبيه: كلّ قصص هذه الرواية من نسج الخيال، ومن العبث البحث لها عن جذر في الواقع، أو شبه في الحياة.

(ح.م)

كان كامل البهاء يعرف أنَّ الصراع مع المرأة ليس بالأمر السّهل، وكانت سليمى الواصل تعرف أنَّ الصراع مع الرّجل ليس بالأمر السّهل، لكن باب الصراع كان قد فُتح، ومن الصعب إغلاقه إلاَّ بانتصار أحدهما. وفي سبيل هذا الانتصار استخدم كلّ منهما جميع أسلحته: قرّر كامل إخراج المرأة من رأسه، مرّة وإلى الأبد، وقرّرت سليمى إبقاء المرأة في رأس كامل، مرّة وإلى الأبد أيضًا؛ ولكلٍّ منهما أسبابه ومبرّراته، ولدى كلٍّ منهما حججه ودفاعه، فأيّ القرارين سينتصر؟ وهل يعمد الرّجل لإغراء المرأة في نزوة الشبق، أم أنَّ المرأة، في سعار الاشتهاء، ستتطامن أمام الرّجل؟ وما نسبة الضعف في القوّة، ونسبة القوّة في الضعف، حين تنطلق الغرائز من قمقم الموت، الذي لا يقهره سوى الجنس؟

البادئ، عرفًا، يكون الأظلم، وقد بدأ كامل الاتّهام قائلاً في نفسه «إنّني على حقّ»؛ وبدأت سليمى الاتّهام المقابل، قائلة في نفسها «إنّني على حقّ!». والحقّ لا يضيع، غير أنّ تحقّقه الفعلي، بدلالة الحدث، قوس واسع

الحدّين، تتدرّج بينهما وتتدافع ذرائع ومماحكات، في حوار الذكر والأنثى، الذي تطلّ منه، في لبوس التماهي، رغبة مكبوتة ساعية للاستعلان. فكامل البهاء يرى أنّ المرأة مراوغة، وسليمى الواصل لا تنفي هذه المراوغة، إلاّ أنّها تسأل: من اضطرّها إلى ذلك؟ والحكاية تبدأ من هنا، في نوع من المكاشفة الجريئة، المعرّية لكلّ ما على الجسد، الحريصة على قول المسكوت عنه، من خلال إظهارِ ما كان مستورًا، فما هو هذا المستور؟ وكيف تنكشف الأقنعة عن الوجوه والأرجل، وما بينهما، واحدًا بعد آخر؟

لنقرأ:

ـ ١ ـ

كتب كامل البهاء، في اليوم الأوّل: المرأة مراوغة!

كتب، في اليوم الثاني: المرأة كاذبة!

كتب، في اليوم الثالث: المرأة عاهرة!

كتب، في اليوم الرابع: مَنْ جعل المرأة مراوغة؟

كتب، في اليوم الخامس: مَنْ جعل المرأة كاذبة؟

كتب، في اليوم السادس: مَنْ جعل المرأة عاهرة؟

محا، في اليوم السابع، كلّ ما كتب. غادر المدينة إلى الجبل، حيث الغابة، في صمتها، كلام، وحيث السّكينة، في مهابة الطبيعة، تقول ما لا تقوله الشفاه. وحيث الأجوبة، على كلّ الأسئلة، تتراءى مظهَّرة على زرقة السماء، من فتحة هنا، وأخرى هناك، بين أشجار الغابة العذراء، الكثيفة.

جلس كامل البهاء على مهاد العشب اليابس لإبر الصنوبر، أسند ظهره إلى جذع صنوبرة عتيقة، ثخينة، وارفة الظلّ، لطالما فكّر في توليف كوخ عندها، من الأغصان والأوراق، بابه مشرّع إلى الغرب، يستقبل، في الأماسي والعشيّات، النسمات التي تهبّ من البحر، فترتعش الأوراق اليابسة، تهتزّ، تخشخش، عازفة موسيقاها الخاصّة، الموسيقى المتناغمة مع مهابة الصمت، المنداحة مع أمداء السكينة، الصانعة له بهجة يفتقدها في ضجّة الشوارع، وفي هدير وصخب السيّارات والباعة والنّاس، في مدينته الساحليّة.

كان يحلم بذلك منذ أمد بعيد، وكان حلمه مسحوبًا، أبدًا، على المستقبل، وكان، من عجب، على وثوق تامّ بأنّ حلمه سيتحقّق يومًا، إلاَّ أنَّ هذا اليوم السرابيّ ظلّ بعيدًا، كلّما خيّل إليه أنّه اقترب؛ غير أنّ كامل البهاء لم يقنط، في أيّما ساعة، من إمكان تحقّقه، فعاش على رجاء خلّبي، تصنع خلّبيّته، مع كلّ صيف يهلّ، التزامات تتوالد، تتكاثر، فيدرك، بكثير من الأسى، أنّه في اللاّذقيّة مغلول إلى القلعة، كما هو مغلول في دمشق إلى الغوطة، وأنّه لا يفعل سوى نسج الهباء أمنية، في أن يأتي البحر إلى الشام، أو تأتي الشام إلى البحر، وأن تتلاقى الزرقتان، في عام ما من دهر ما، هو وحده يغيّر من جغرافيّة أشياء الوجود.

رَكَنَ سيّارته إلى جانب الطريق، هارب وليس بهارب،

يعرف، كما خطوط كفّه، تشعّبات الدرب إلى كَسَب والبسيط، قديمًا كان يذهب إلى الفرنلق، له فيها مغامرات، له في كلّ تلك الغابات أمكنة وذكريات؛ أخيرًا اصطفى مكانًا غابيًّا إلى يسار الطريق الذاهب إلى البسيط. وكعادته، ترجّل اليوم مشوقًا، لم يصطحب معه سوى علب السيكارات وولاّعة. . هدأة الغابة أحبّ إلى نفسه، في عزفها الهامس، من كلّ موسيقى الدنى، خاصّة وأنّه جاء يتخفّى، يلوذ بعزلة فيها توحُّد، يقتعد، في جوف الغابة، كمشكاة سراج في بيت شاميّ قديم، تاركًا بندقيّة الصيد في صندوق سيّارته، منحدرًا بهذه السيّارة في مفرق يحجبها عن الأنظار، مطمئنًّا، على هذا النحو، إلى انفراده بنفسه، إلى النظر في داخله، إلى محاورة ضميره، إلى محاكمة ذاته. . وصولاً إلى قرار عادل، يدعم قرارًا آخر يظنّه عادلاً، اتّخذه بعد تفكير طويل، بعد تجارب كثيرة، مريرة، مفاده إخراج المرأة من رأسه!

قال وهو ينكت الأرض بعودٍ يابس:

ـ أنا صاحب القرارات التي لا عودة عنها!

ـ برهانك!

تلفّت حواليه:

ـ من السّائل؟

لا أحد!

ـ كيف؟

لا كيف!

ـ والصّوت الذي سمعت؟

لا صوت!

ـ هذه نفسي.

قالت نفسه:

ـ أنا بريئة منك!

ـ هذا ضميري!

ـ ضميرك في إجازة! هل نسيت؟

ـ لكنّني كنت أحاوره قبل قليل!

ـ كنت تحاور عقلك لا ضميرك.

ـ ولماذا عقلي؟

ـ لأنّك تخشى ضميرك!

ـ الآثم وحده يخشى ضميره.

ـ الآثم لا يعرف أنّه آثم أحيانًا!

ـ أنا قادر على التمييز بين الإثم وغيره!

ـ هذا ادّعاء مغفّل.

ـ كنت مغفّلاً في الماضي.. والماضي صار ورائي.

ـ منذ متى؟

ـ منذ أن أخرجت المرأة من رأسي!

ـ بهذه السّهولة؟

ـ وما الصعوبة في الأمر؟

ـ هذا ما سوف تعرفه!

صاح كامل البهاء في الوجه الخفيّ لصاحب الصوت الخفيّ:

ـ إنّني أعرف ما سوف أعرفه! أعرف ما سوف أعرفه! أعرف ما سوف أعرفه!

ـ وماذا لو عرفت ما كنت تعرفه مرّة أخرى؟

ـ هذه قولة ألبير كامو، وكان، في حينها، مجنونًا. أمّا أنا فعاقل!

ـ برهانك؟

ـ عدنا إلى البرهان؟

ـ البيّنة على من ادّعى!

ـ وبماذا ادّعيت؟

ـ بأنّك أخرجت المرأة من رأسك!

ـ هذا قرار.. وأنا صاحب...

ـ لا تكمل.. أنت صاحب القرارات التي لا عودة عنها، أليس كذلك؟

ـ بلى!

ـ أنت سخيف إذ تظنّ ذلك.

ـ السخف في الظنّ لا في اليقين.

ـ وتحسب أنّك بلغت اليقين؟

ـ وها أنا أستريح.

ـ لن تستريح!

ـ اللّعنة إذن!...

تذكّر كامل البهاء القول المأثور «أن تشعل شمعة خير من أن تلعن الظلام»، فقال صامتًا: «في الغابة لا يشعلون شموعًا، مع ذلك سأفعل، سأبدّد الظلام من حولي، وصولاً إلى النور الحريريّ في طلّة الصباح!» أضاف مقهورًا: «حسبت أنَّ الهرب من الناس سبيل إلى النجاة. لا! الهرب من النفس هو السبيل الآخر. لكنّني، أنا، سأفلح في الهرب من نفسي، كما أفلحت في الهرب من الناس، وسأنجو من عذاب الاثنين! «وَهْم!». قالت نفسه «سفيري إليك ضميرك، تصالح مع ضميرك أوّلاً!» ردّ كامل: «حاورني ضميري بما يكفي، فماذا يريد أكثر؟ إنّني، هنا، بإرادتي، وستنتصر إرادتي على ضميري، لأنّني

لم أرتكب إثمًا يحاسبني عليه، ولا أنوي ارتكاب إثم يردعني عنه، فما القضيّة المتبقّية؟ الإنسان ولد حرًّا، وليس لأحد أن يستعبده، ولأنّه حرّ، وحرِّيَّته لا تسيء إلى أحد، فمن حقّه أن يحبّ وأن يكره، وأشهد أنّني لا أكره المرأة، لكنّني لا أريدها في رأسي. هذه هي كلّ المسألة!». قالت نفسه: «تبقى في الغابة لماذا؟» ردّ كامل: «كي أستريح!».

ـ ٢ ـ

قال ضمير كامل لكامل:

«لا أحد في هذه الدنيا يستريح، دفعة واحدة!»

«لا أحد في هذه الدنيا يستريح، حتّى على دفعات!»

«لا أحد في هذه الدنيا يستريح، متخطّيًا قانون اللاّراحة!»

«الراحة هي اللاّراحة!»

«وماذا نفعل في الراحة إذا استرحنا!؟»

قال كامل لضميره:

وماذا نفعل في التعب إذا تعبنا!؟

نكون مع الناموس: ناموس الحركة.

وخلافها!؟

الثبات!

ومع الثبات الاسترخاء.

ومع الاسترخاء البلادة.

مع الاسترخاء الطمأنينة!

والطمأنينة نافية للقلق!

«هذا الوحش المفترس» حسب بودلير.. ليكن!

وحين يكون.. فكّر أنت!

لا يكونُ حبّ ولا إبداع!

وما الحياة، معنى ومبنى، بغير حبٍّ وإبداع!؟

حياة الدعة!

والندم؟

نعالجه حين نندم.

بعد فوات الأوان؟

لا بعده ولا قبله، في وقته تمامًا.

وهْم أيضًا!

الوهْم بعيد عن حقيقتي.

وإذا كانت حقيقتك هي وهمك؟

ألقى كامل بالعود الذي ينكت به الأرض، نهض منفعلاً، متوتّرًا، صائحًا:

ـ لا! لا! حقيقتي ليست وهمي، حقيقتي هي حقيقتي، الوهم بعيد عنِّي.

تقدّمت، فورًا، كما بحركة زوم سينمائيّة، صنوبرات الغابة منه. أحاطت به في شبه دائرة، خرجت من جذع كلّ صنوبرة امرأة. تقدّمت النّساء منه وهنّ يتدافعن، يتصايحن، وكلّ واحدة ترغب أن تتكلّم أوّلاً، زاعمة أنّ هذا حقّها، ولا تنازل عنه.

دهش كامل لما جرى، حسب أنّه في مكان قصيّ، لا أحد يكتشفه فيه، وأنّه سيستريح، بعد أن أخرج المرأة من رأسه. كان يتخيّل ذلك، إلاّ أنّ الخيال شيء والواقع شيء آخر، وها هو محاصر بنساء عديدات، وعلى فم كلّ واحدة كلام، ولا بدّ له أن يصغي إلى كلامهنّ، شاء أو أبى، لذلك قال بنبرة توسّل:

أرجوكنّ، الكلام بالدور، وأنا مستعدّ، بعد أن اكتشفتنّ مخبئي، أن أستمع إليكنّ جميعًا..

تقدّمت امرأة وقالت:

ـ تذكرني، أم أنّك نسيتني؟

تفرّس فيها مليًّا، وقال:

ـ تذكّرت، أنت هدى بركة، أين كنت؟

ـ في رأسك!

ـ ومتى خرجت منه؟

ـ عندما أخرجتني أنت مطرودة.

ـ ولماذا جئت؟

ـ كي أحاسبك على طردي من دون ذنب.

فكّر كامل مليًّا وقال:

ـ هذا غير صحيح.. ذنبك أنّك ثَرْثارة، وأنّك ترفعين صوتك في وجهي.

ـ والحبّ الذي بيننا؟

ـ مات!

ـ وهل يموت الحبّ؟

ـ كما يولد يموت!

نظرت إليه هدى وابتسمت، بدت ابتسامتها كإشراقة، اتّسعت الإشراقة، ملأت الوجه الصبوح، لامرأة في نضج الأنوثة، ناظرة إليه بإغراء، دون أن يبالي كامل بها، أو يتأثر بإغرائها.

لكن مشهدًا قديمًا تراءى من جديد. ها هي هدى تفتح الباب، وها هو كامل يقبّلها وراء الباب. عانقته في الممشى، توقّف وعانقته من جديد، وضع يده اليمنى على خصرها، عانقها، قبّلها، هصر قوامها الأملودي، قال لها

ضاحكًا:

ـ هذه وجبتك السريعة.

عانقته وقالت:

ـ لا بأس، نحن في زمن الوجبات السريعة، وقد انتشيت.

ـ بهذه السرعة؟

ـ ولماذا تستغرب؟

ـ لأنّ الجاحظ ذمّه في الرّجل، ومدحه في المرأة.

ـ كان ذوّاقة جاحظك هذا!

ـ كان مجرّبًا، ملاحظًا، حكيمًا، وله كتاب في «البخلاء».

ـ أنا لست بخيلة، لكنّني أحبّ القراءة عن البخلاء.

قال كامل:

ـ البخيل يمكن أن يكون إنسانًا طيّبًا.

سألت هدى:

ـ والكريم؟

ـ يبقى إنسانًا رائعًا.

ـ أنت على حقّ، ولكنّ الأنثى الكريمة تبقى إنسانة

أروع.

ـ أنت تدافعين عن الأنوثة بشكل جيِّد.

ـ أنت علّمتني هذا.. قلت لي: لنكن أسوياء كما أرادتنا الطبيعة.

ـ ولا أزال عند هذا الرأيّ.

ـ هل لأنّ فيه وفاء لجدّتنا حوّاء؟

ـ وفيه احترام للمرأة، عندما تحترم المرأة ذاتها، تدافع عنها كما ينبغي.. أرغب، يا كامل، أن أكون هذه المرأة دائمًا، ومعك خصوصًا.

ردّ كامل.

ـ ليس معي وحدي، هناك النّاس، هؤلاء هم الأصل، نحترمهم لكي يحترمونا، أو نحترم ذواتنا فيحترموننا من خلال هذه الذوات.. الحبّ يندرج في هذا المعنى.

ـ على ألاَّ يكون جافًّا في كلّ حالاته.. يا إلهي كم أكره الحبّ الجافّ.

ـ هذا من الخبرة؟

ـ الخبرة معك وحدك.

ـ كما حوّاء مع آدم؟

قالت هدى:

ـ أفضّل حوّاء على آدم. . لا أدري لماذا أفضّل حوّاء على آدم!؟

ـ لكونك امرأة مثلها، ولأنّ حوّاء كانت صاحبة التفّاحة. . كانت مؤدّية بينما كان آدم المتلقّي. .

ـ لا تقل، يا كامل، أشياء صعبة على الفهم. . هذا، في موقف الحبّ، يسيء إليه، يجعله جافًا وجدِّيًا.

ـ كيلا أكون جدِّيًا أعطني ما أشرب.

ـ أريدك غير جدّيّ دون شراب.

ـ أفهمك، ولكن أعطني ما طلبت أوّلاً.

ـ إذن قبّلني.

ـ القبلة تحلو مع الشراب. . أعطني ما أشرب.

ـ أليست القبلة شرابًا؟

ـ القبلة شراب من نوع آخر، وأنت تعرفين أنّني أحبّ المزج، وأحبّ أن تمزجي بين الشرابين أنت أيضًا.

ـ وعندئذ نكون ماجنين معًا!

ـ ولماذا لا نكون!؟ لست مع المجون في غير وقته، ولست ضدّ المجون في وقته «لجمع الحجارة وقت، ولتفريقها وقت آخر!»

ـ إلاَّ في الحبّ، هذا، بحسب رأيك، في الصمت

يحلو، أحيانًا كثيرة.

قال كامل:

ـ وأنت، رغم ذلك، تثرثرين وبصوت مرتفع، كفّي عن هذا.

قالت هدى بركة:

ـ لا أستطيع! قلت لك لا أستطيع.. بماذا تفكّر؟

ـ ليس بثرثرتك على كلّ حال.

ـ لكنّك لست معي!

ـ مع مَنْ إذن؟

ـ مع نفسك.. هذا طقس بالنّسبة إليك. لكن عليك، عندما تكون معي، أن تنسى طقسك هذا.. أن تكون معي بكلّ حواسّك، وهذا طقسي أنا إذا أردت أن تعرف.

فكّر كامل البهاء وهو يتأمّل وجه هدى ويتذكّر:

ـ هذا طقس الأنثى دائمًا، وهدى أنثى.. لماذا تشكّ بأنّ كلّ حواسي معها؟ وإذا كان قد رفّ على وجهي، رَعَش من التفكير، زعمت أنّني أفكّر بغيرها، مع أنّني لا أفكّر بغيرها. ثمّ لماذا تكره المرأة أن يفكّر الرّجل وهو معها؟ وهل لا تفكّر هي إذا كانت معه؟ المرأة ليست عدوّة التفكير بإطلاق، لكنّها تريده على شبع من غزل، بينما هدى، الآن، جائعة إلى الغزل!

قرأت منذ أعوام رواية طريفة، بطلها عالم وبطلتها فتاة معجبة بهذا العالم؛ وفي زيارة لهما إلى بيت أبيها في الرّيف الرّوسيّ، يروح البطل يشرح نظريّاته العلميّة، بينما الفتاة اللّعوب تأمل أن يغازلها قليلاً، أن يدع الكلام على العلم ويتحدّث عن الحبّ، وعن حبّه لها بوجه خاصّ. فلمّا لم يفعل، ومع تطاول الوقت، شعرت بالملل منه، بالرّغبة في أن تضربه على أنفه، أن تسخر منه ومن علمه بطريقة ما، أن تذلّه بوضعه في مأزق رؤيتها عارية خلال قيامها بالسباحة في نهر قريب. فلمّا تعرّت إلاّ من اللّباس الداخليّ، ورآها العالم، راح يقترب منها، وعندئذ تعمّدت أن تصرخ محذّرة إيّاه من الاقتراب، إلاّ أنَّ العالم الذي فوجئ، وبدا مأخوذًا بجمال جسدها، فقد قدرته على التوقّف، وراح يدنو منجذبًا بإغراء غريزيّ، بإغراء جسم فتاة كان يتطلّب منه أن يغازله، أن يمتدحه، وحتّى أن يداعبه، بدل أن يتجاهل مفاتنه، محاولاً حشو رأس الفتاة بالعلم! والرّأس يلتهب في طلب كلمات الحبّ. لذلك كرهت أن يراها شبه عارية، فراحت تصرخ به وتصرخ دون جدوى، عندئذ مدّت له يدها وجذبته بقوّة، فسقط في الماء وهي تتفّ على خسّته من فرط كيد.

في هذه الأثناء، كانت هدى تحضّر الشراب، فلمّا عادت ورأته مستغرقًا في التفكير سألت باستياء:

ــ والآن! بماذا تفكّر؟

أجاب كامل:

ـ بما يضحك!

ـ وما هو الذي يضحك؟

ـ كثرة تفكيري وأنت إلى جانبي.

ـ لا! ليس هذا، مع أنّه عيبك الدّائم!

ـ عيبي الدّائم!؟

صرخت هدى:

ـ نعم! عيبك الدائم!

ـ ولماذا تصرخين؟

ـ لأنّ الصراخ يلذّ لي.

ـ ألا تذكرين شرطي؟

ـ أذكره.

ـ ولماذا الصراخ في وجهي؟

ـ لأنّني متضايقة من صمتك!

ـ تخافين الصمت؟

ـ أكرهه.

وماذا تحبين؟

قالت هدى:

ـ رحلة طويلة على قارب من ورق البهجة الملوّن.

ـ رومانسيّة؟

ـ شيء من هذا.

ـ وأنا واقعيّ؟

ـ إلى حدّ لعين! لم أعد أحتمله.

قال كامل بعد تفكير:

ـ هذا ما كنت ألاحظه، وها أنا أسمعه بأذنيّ.

ـ كان يجب أن تسمعه.. أنت متعِب.

ـ وأنت مريحة!

ـ ماذا تعني؟

ـ ارجعي إلى كلام الجاحظ

ـ حول المذموم في الرّجل والممدوح في المرأة؟

ـ تمامًا.

ـ أحببتني، إذن، لسبب!

ـ وكرهت غيرك لسبب أيضًا.

ـ الحبّ الذي يُبنى على سبب، يزول بزوال السّبب، كنت أحسبك تحبّني لذاتي.

قال كامل البهاء بهدوء، ودون أن يتذوّق كأسه:

ـ أحببتك أوّلاً لذاتك، فالحبّ، في كلّ حالاته، يكون للذّات أوّلاً، ثمّ يكون لسبب فيزداد الحبّ بسببه.. أنت أنثى، تفهمين ما أقول، لكن عليّ أن أضيف: أحببت، في الأصل، ذاتي من خلالك.

قالت هدى:

ـ هذه خدعة!

ـ هذا قانون: كلّ إنسان يحبّ ذاته من خلال الآخر، وهذا ينطبق عليّ وعليك وعلى الجميع.

ـ حبّ الذّات أنانيّة!

ـ نخدع أنفسنا إذا كنّا نحسبها مجرّدة من كلّ أنانيّة، وفي الحبّ خصوصًا.

ـ حبّي لك كان مجرّدًا من هذه الأنانيّة.

ـ وهم!

ـ وإذا كنت صادقة في ما أقول؟

ـ وإِلامَ يستند صدقك؟

ـ إلى حبّي النقيّ لك.

قال كامل:

ـ حتّى الحبّ الذي نحسبه نقيًّا، فيه مقدار من عدم النقاء، ومن الوهم، وخدعة الإخلاص. فما نحسّه، من

خلال الوعي، ليس كلّ الإحساس. هناك خبث الإحساس، كما هناك خبث الشعور.. وفوق ذلك، ما هو نقيّ اليوم لا يبقى نقيًّا في المقبل من الأيّام، فالنقاء القديم كاليقين القديم، ينتهي يومًا ويمضي، وفي هذه الحال، يصبح الكلام عليه هذيانًا لا أكثر، إلاًّ أنّ الغريب في الأمر هو اعتبارنا هذا الهذيان حقيقة، وأنّ هذه الحقيقة بنت العقل، وأنّ العقل مرجع للصواب، بينما عقلنا يمدّنا حتّى بالتبرير اللاّزم للخطأ.. دعيني أنس، وتصوّري حال الإنسان لو لم يكن قادرًا على النسيان!

قالت هدى:

ـ لماذا، يا عزيزي، تريد إغراق متعتنا بالكدر؟

ـ بسبب العيب الذي فيّ.

ـ بسبب الانطفاء!

قال كامل:

ـ لست منطفئًا، أو نادمًا، إنّني أشكّ فقط.

ـ تشكّ فيّ وأنت العزيز، بل الأعزّ عندي؟

ـ الشكّ، يا هدى، تحوّل الآن إلى يقين، ودليلي هذه المبالغة اللّفظيّة عن المعزّة.. هناك لعبة ما!

ـ لعبة ما!؟ من أيّ نوع!؟

ـ اسألي شفتيك.. ليس الأحمر الذي عليهما، وإنّما

الذي وراءه: الجلد واللّحم!

ـ أفهم من هذا أنّك تتّهمني بعدم الصّدق؟ بعدم الإخلاص؟

ـ حتّى لا أقول الكلمة البديلة للإخلاص.

ـ الخيانة!؟

ـ هذه هي!

اشرأبّ عنق هدى كما الأفعى آن اللّدغ، وضعت يديها في خاصرتيها، وصاحت:

ـ هكذا إذن!؟ أنا خائنة في نظرك.

ـ ليس في نظري وحده، وإنّما في الواقع.

ـ وكيف اكتشفت ذلك؟

ـ من تصرّفاتك، ومن ملامسة شفتيّ لشفتيكِ خصوصًا.

ـ لم أكن أعرفك على هذه الدرجة من الحساسيّة.

ـ ظنّك هذا خدعك. . لست بالبلادة التي تتصوّرين.

ـ ولست بالنباهة التي تتصوّر.

ـ في هذه الحال، اسمحي لي أن أصارحك: لا يمكن تغطية فوهة البئر بورق التّين، ولا يمكن، تاليًا، تغطية عدم إخلاصك بكلمات المعزّة وما فوقها. . لقد تغيّرتِ، يا هدى، منذ أكثر من عام، وكنت أراقب تغيّرك بصمت. .

أضاف كامل وهو ينهض ملقيًا سترته على كتفه:

ـ قلت لكِ مرارًا: لجسمك عليك حقّ. لذلك أنت حرّة، فكوني كما تشائين.

وكانت هدى كما شاءت!

* * *

بعد ذلك عادت سريعًا إلى جذع الصنوبرة التي انغلق عليها، تقدّمت صنوبرة ثانية خرجت من جذعها رايا وهي تبتسم، قالت:

ـ وأنا؟ هل أخرجتني من رأسك أيضًا؟

ـ وتسألين بعد؟

ـ أسأل عن ذنبي، ما هو ذنبي؟

ـ المماحكة!

ـ بماذا؟

ـ بالحبّ والصداقة والفرق بينهما.

ـ أردتك صديقًا فرفضت!

ـ بعد ماذا؟

ـ بعد الحبّ، الصداقة أثمن من الحبّ، أتحدّاك أن تثبت العكس.

قال كامل:

ـ يا رايا، يا عزيزتي، لم آت إلى هنا، إلى هذه الغابة البعيدة، لأتحدّى بل لأستريح.. عودي إلى الصنوبرة التي خرجت منها بحقّ الجحيم!

ـ والحساب الذي بيننا؟

ـ صُفّيَ من زمن بعيد.

ـ على أيّ أساس؟

ـ على أساس الرّفض.. لقد أردت استملاكي، وأنا لا أُستملك من قبل إنسان، والمرأة خصوصًا.

ـ هذا الذي تقوله تحوير للواقعة.. لم يكن هناك استملاك بل طلب للوفاء، وهذا من حقّي.

ـ وإذا قلت لك إنّني كنت وفيًّا، وأنّ شكّك هو الذي اغتال وفائي!؟

ـ أقول لك: ليس من رجل وفيّ.. هذا من حيث المبدأ، أمّا من حيث..

قاطعها كامل:

ـ لا تتحدّثي، أنت بالذّات، عن المبدأ.. لا مبدئيّة للمرأة في الحبّ، وتاليًا في الوفاء، أنت التي ذهبت إلى غيري.

ـ وكتبت إليك منادية إيّاك: يا أميري.

ـ لم أكن يومًا أميرًا.

ـ كنتَ أميرًا في استرضائي!

ـ وكنتِ عبدة في هجري.

قالت رايا:

ـ هجرتك طائعة نفسي.. كان يجب أن يحدث ذلك، وأنت مَنْ أوصاني به، حتّى لا أبقى وحيدة في المقبلات من أيّامي.. هل نسيت؟

ـ وكيف أنسى فلسفتك في هذا الهجر؟ أعترف. أنت تلوين، على نحو جيّد، عنق الفلسفة لتبرير أشيائك، لكنّني، أنا، لا أخدع بمثل هذه التبريرات، فأنت حرّة في هجرك، كما أنت حرّة في بقائك.. الأمر سيّان لديّ، ما دام الذي ذرف الدّمع على مقود سيّارته، هو من عاد فلحسها، تاركًا كلمات العشق مصلوبة في العراء.. الحبّ، يا رايا، يبدأ وينتهي، وليست كذلك ذكرياته. وما فعلتِه، بعد الهجر، هو إدارة الظهر لهذه الذكريات، شنقها على عمود التجاهل، كأنّما ورودها في الخاطر ينغّص حياتك التي أصبحت عاديّة، في حدود الممكن لا الطموح، أي بتعبير آخر: وضعتِ حياتك في تابوت فوق ثلاّجة الموتى!

قالت رايا:

ـ تعرف، أنت، قبلي، أنّ نيس أصبحت بعيدة، وليس مهمًّا، بعدُ، أين ترسّبت ذكرياتها: فالماء العكر، في الترسّب، يشفّ، يرتفع في الإناء ما كان منه صافيًا كدمعة الطفل، يتحوّل اتّساقًا مع قانون التحوّل، ككلّ شيء في هذا الوجود. حبّك، يا كامل، تحوّل، صار صداقة، وهذه في العلاقة الإنسانيّة هي الأبقى، لو كنت تفهم الصداقة كجوهر، وأنّ الجوهر عصيّ على الفناء.

ابتسم كامل من إشفاق، متمنّيًا لو تنصرف رايا، لو أعفته من لغوها، لو كان في وسعه أن يمرّ كريمًا بهذا اللّغو، فهذه المرأة لا تفعل سوى ترديد ما ملّ سماعه، ما زهق من قراءته في رسائلها، ما وجده نافلاً إلى حدّ السّأم، ما يدعو إلى السخرية لشدّة ما فيه من إغْلاظ سمج حول الصداقة والعلاقة الإنسانيّة، رغم افتقار كلّ منهما إلى سند من صدقيّة، ورغم أنّ المطر المتساقط إلى أعلى، بفعل ريح كذوب، لا يلبث أن يسقط إلى أدنى، حين تكفّ الرِّيح عن العبث به على زجاج باب أو نافذة.. المرأة، في المآل، ليست أكثر من رافعة هوائيّة لمطر أكاذيبها، حتّى مع علمها أنّ أكاذيبها كمطرها لا يرتفع؛ وشأنه، بعد ريث من الارتفاع، إلى السقوط والتشظّي، كزبد موجة على صخرة صمّاء. والمرأة، فوق ذلك، راغبة، وقادرة، على المماحكة إلى ما لا نهاية، أملاً في أن تجد من يصدّق

كذبها المموّه بمماحكتها، من دون أن تفطن للحظة أن من يسمعها قد غدا برِمًا بترّهاتها، قَرِفًا من اعوجاج منطق تصرّ على أنّه مستقيم!

عند هذه النقطة توقّف كامل عن بعثرة القشّ وإعادة جمعه، رفع رأسه وقال لرايا:

ـ لماذا لا تعودين إلى المكان الذي خرجتِ منه، وتتركينني في دعة وسلام مع نفسي؟

ـ وبماذا أتسلّى عندئذٍ؟

ـ بصبغ شفاهك، أو طلاء أظافرك، أو تمسيد المرهم على وجنتيك. . .

ـ وأنت؟

ـ أنا أخرجت المرأة من رأسي واسترحت.

ـ وفي اللّيل؟

ـ أطردها عندما تزورني!

ـ لا أحد يطرد ذاته من ذاته.

ـ مع الإرادة القويّة يفعل.

ـ وينجح؟

ـ لو لم يكن واثقًا من النجاح لما فعل.

ـ البشر يثقون بنجاح الكثير من أفعالهم، وهذا وثوق

غبيّ. . لماذا ترفض صداقتي؟

ـ لأنّها مدخولة، وضدّ منطق السيرورة.

ـ وما منطق السيرورة لديك؟

ـ أن نوقن، كما قلت سابقًا، أنّ الصداقة، بعد المعرفة، درجة في الارتفاع، وأنّها، أيّ الصداقة، بعد الحبّ، درجة في الانخفاض.

قالت رايا:

ـ الصداقة التي أعرضها عليك تعلو على الحبّ.

قال كامل:

ـ ليس بعد أن صار الحبّ حبًّا.

ـ وبعده أيضًا.

ـ هراء!

ـ يقابله عناد غير مبرّر. . خذ الصداقة بمعناها السامي.

ـ ليس للسموّ أو غير السموّ دخل فيما نحن فيه. . الصداقة قبله تكون، وبعده تبوخ. هذا من الفهم البسيط للمنطق، فكيف يستغلق عليك؟ ولماذا المكابرة في الأمر؟ لقد تنبّأت أنّك، مع الصداقة المعروضة، ستقطعين رسائلك عنّي، وستهجرينني بعد ذلك، وهذا الذي صار. . أم أنّك ترغبين في المماحكة لأنّك امرأة؟

قالت رايا:

ـ انتبه يا كامل! أنت تنزلق، دون تحفّظ، إلى ما يغاير موقفك من المرأة.

ـ قلت لكِ المرأة لم تعد تعنيني.

ـ هذا ليس في صالحك.

ـ أعرف صالحي أكثر منك.

ـ أشكّ في رؤيتك للحقيقة.

ـ لا تشكّي في هذه الرؤية.. أنا مع إيجابيات المرأة، لكنّني ضدّ بعض سلبيّاتها، السلبيّات ذات الجذور التاريخيّة، وبفعل موقف الرّجل من المرأة أيضًا!

ـ بسبب اضطهاده لها؟

ـ نعم!

ـ وها أنت تمارس هذا الاضطهاد نفسه.

ـ أنا لا أمارس شيئًا.. أهرب من المرأة لأرتاح.

ـ ولن ترتاح.

ـ ربّما!

* * *

تقدّمت صنوبرة ثالثة، خرجت من جذعها نعيمة

هلبوتي، رفع كامل البهاء رأسه، نظر إلى المرأة الخمسينية، قال ضجرًا:

ـ ماذا تريدين أيّتها المحتالة؟

قالت نعيمة:

ـ الفقر هو الذي دفعني إلى الاحتيال!

ـ وأنا لا أدينك. . اذهبي بسلام.

* * *

اقتربت صنوبرة أخرى، خرجت من جذعها رائفة ميساوي. كانت تبتسم، تضجّ إغراء. نظر إليها كامل البهاء، وقال:

ـ ماذا تريدين أنت أيضًا؟

ـ وصل ما انقطع بيننا.

ـ كان وصلاً كاذبًا، أنتِ أفعى بسبعة رؤوس.

ـ وأحببتك بالرّؤوس السبعة.

ـ وبها، جميعًا، خنتني مع الكثيرين!

ـ جئت من بعيد إليك.

ـ جئتِ من بعيد للنصب، نصبتِ عليّ، لعبت من وراء ظهري، وكنت أعرف. . لذلك كانت آخر كلمة قلتها لك عند السّفر: أنت عاهرة!

ـ وقد تبت، وأريدك أن تقبل توبتي.

ـ توبتك بعد فوات الأوان.

ـ توبتي صادقة.

ـ توبتك كاذبة.. مع السّلامة!

* * *

تقدّمت صنوبرة جديدة، خرجت منها ضامرة الخصراوي، كانت شابّة، مليحة، ناعمة، ملساء، خفرة، تبدو كأنّها قدّيسة وهي شيطان رجيم، ألقت التحيّة وانتظرت.. رأى كامل إليها باشمئزاز، وقال:

ـ اغربي عن وجهي.. أنت حرباء حقيقيَّة!

ـ ماذا فعلت؟

ـ لا داعي للتعداد.

ـ أذكر لي ذنبًا واحدًا.

ـ أنت غير مريحة.. ودموعك كالمطر الأحمر.

ـ كنت مضطرّة.

ـ وأنا لا أحاسبك.

* * *

ملَّ كامل البهاء جلسته، النّساء نغَّصن عليه هذه الجلسة، لاحقنه حتّى إلى الغابة، حسب أنّه، في هروبه

البعيد، يتخلّص منهنّ، فإذا بهنّ يكتشفن مكانه. ظنّ أنّ الغابة وفيّة، ها هي خائنة. الغابة أنثى، وكلّ أنثى عديمة الوفاء، حتّى لو أرادت غير ذلك.. طبع!.. كيف تشكّل هذا الطّبع!؟ ما الدافع إليه؟ مَنْ المتسبّب فيه؟ الحقّ، بعد كلّ شيء على مَنْ؟ على المرأة؟ ربّما! على الرّجل؟ ربّما! على المجتمع؟ مجرّد افتراض. على التاريخ؟ الأمر، هنا، مرجّح! لكنّه يحتاج إلى سند، السند يحتاج إلى مراجعة، إلى دراسة. قبل ذلك يبقى الترجيح افتراضًا أيضًا.. كامل البهاء يؤمن، نظريَّةً وتطبيقًا، أنّ الإنسان ابن تاريخه الاجتماعيّ. فما هو التاريخ الاجتماعيّ للمرأة!؟

فكّر كامل، تعب من التفكير، قال في ذاته: «اللّعنة!».

كان هنا، جاء إلى هنا، هربًا من المرأة، هربًا من التفكير بالمرأة، فإذا الأسئلة حولها تنهال عليه، تحاصره، تبعث القلق، ثمّ الغثيان، في نفسه، فماذا هو صانع؟ الهرب! لا بدّ من الهرب. لكن إلى أين؟ أين تهرب يا كامل؟ إلى غابة أخرى، لا! سيكتشفنني هناك، كما اكتشفنني هنا.. إلى الجبل! في الجبل صخور، ستخرج النّساء إليّ من الصخور.. إلى البحر، في البحر موج، سيخرجن إليّ من الموج، كلّ امرأة تخرج من موجة، كما خرجت كلّ امرأة، ههنا، من صنوبرة.. إذن ما العمل؟ إلى متى هذه المطاردة؟ إلام القهر منها؟ أبكي؟ ما نفع البكاء؟ لا! لا نفع في البكاء، فقد قرأت يومًا هذا الحوار في قصيدة

زجليّة:

قلت:

ــ أبكي!

قالت:

ــ ما نفع البكي؟

قلت:

ــ فشّة خلق!

قالت لي:

ــ حكي!!!

«نعم! حكي! رغم أنّ البكاء، في صدقه والغزارة، يفرّج عن النفس، يزيل كرب المكروب، يقشع الحزن عن الضلوع، يفشّ، كما قال الرّجل، الخلق، ثمّ ماذا؟ تبقى المشكلة قائمة. النابغة قال: «وإنّك كاللّيل الذي هو مدركي / وإن خلت أنّ المنتأى عنك واسع!» المرأة هي اللّيل، فأين تهرب، يا كامل، من اللّيل؟ المرأة هي النهار، فأين تهرب، يا كامل، من النهار؟ المرأة، يا كامل، في رأسك، فأين تهرب من رأسك؟ تزعم أنّك أخرجتها منه؟ مضحك زعمك أيّها الأبله! فالمرأة، يا كامل، في رأسك، في قلبك، في نفسك، بين ثيابك والبدن، بينك وبين حالك، في فكرك، في سريرتك، في الهواء الذي

تستنشق، والماء الذي تشرب، واليقظة، والمنام، والحال، والترحال، ولا مهرب منها أبدًا!»

«نعم! لا مهرب منها أبدًا!» استسلم كامل. اليأس إحدى الراحتين. يئس كامل من قدرته على الهرب من المرأة، دون أن يفطن إلى خبث لاشعوره، إلى أنّه، هو كامل، لا يريد في اللاّشعور، أن يهرب من المرأة.. لو فطن إلى ذلك لضحك من نفسه، أو عليها، لأقلع عن محاولة الهرب، ما دامت غير مجدية، لكونه غير جاد فيها، ولأنّه في هذه الحال يكون قد عرف نفسه، ومن يعرف نفسه، تمامًا، يبلغ الحكمة، وبلوغ الحكمة خارج نسبيّتها أمر مستحيل، لذلك نبقى، نحن البشر، نعيش الاستحالة. وكامل ليس إلاّ بشرًا من البشر.

التجربة مدرسة، والتلميذ فيها تلميذ عمره كلّه، فالتجارب لا تنقطع، والارتهان للتلمذة في مدرسة التجارب لا يتوقّف. وهذه الحقيقة البسيطة تُنسى غالبًا، لهذا نتعذّب، نحن الذين نقع في التجارب ونضيق بها، محاولين عبثًا التخرّج من مدرستها مرّة وإلى الأبد!

تجربة الهرب من المرأة فشلت في الغابة الأولى، إلاّ أنّ كامل لم يقتنع. أصرّ على الهرب من غابة إلى غابة، فذاق الفشل تلو الفشل، إلى أن تعب في الغابة الأخيرة. وعندئذ رضخ متقبّلاً قدره في حضور المرأة، من خلال أيّما شيء حوله.. إلاّ أنّ المرأة، هذه المرّة، لم تخرج من صنوبرة

واحدة. تقدّم نحوه، وهو جالس يتأمّل، صفّ من الصنوبرات، خرج منه صفّ من النّساء، أصبنه بالذعر، لأنّهنّ شرعن دفعة واحدة في الكلام.. وكلّ واحدة منهنّ لها قصّة، وتريد برغمه أن تحكي قصّتها أوّلاً.

قال كامل بلامبالاة:

ـ هذا غير ممكن.. نحن لسنا في حمّام مقطوع الماء!

قالت النّساء بصوت واحد:

ـ نعم! لسنا في حمّام مقطوع الماء، ولكن تعبنا من الرّكض وراءك، فماذا نفعل؟

ـ تكلّمن بالدور.

ـ ومن ينظّم الدور؟

ـ أنا!

ـ نحن لا نثق فيك.

ـ نظّمن الدور بأنفسكنّ.

ـ لا نثق بأنفسنا.

ـ ما العمل؟

ـ أن تكفّ عن الهرب منّا.

ـ أعدكنّ.

ـ وتخلف الوعد.

ـ أقسم بشرفي.

ـ مَنْ لا يحترم شرف المرأة لا يحترم شرف نفسه!

ـ من يجرؤ على مثل هذا الاتّهام!؟ قضيت عمري في تمجيد المرأة والدفاع عن قضيّتها!

ـ كان ذلك في الماضي!

ـ وفي الحاضر أيضًا.. لكنّ الأيّام، وما خبرته من مراوغات المرأة، فرضا عليّ أن أقوم بمراجعة شاملة، انتهيت معها إلى قرار: إخراج المرأة من رأسي!

ـ وهل تستطيع؟

ـ أحاول.

ـ محاولاتك فاشلة عن طريق الهرب.. المواجهة أفضل، لو كنت واثقًا أنّك على حقّ.

ـ ربّما! ربّما! والآن تكلّمن ابتداء من اليسار.

ـ نفضّل الكلام على انفراد.. كلّ منا تقصّ قصّتها بحرِّيَّة، وتسمع رأيك فيها بحرِّيَّة أيضًا.. وبعد ذلك يكون الحوار ثنائيًّا، بينك وبينها فقط.

ـ موافق.. تقدّمي يا هزار. أنت، يا سيّدتي، حاولت الاحتيال على إنسان طيّب، تظاهرت بالميل إليه، وبجرأة

غير معهودة، فلمّا ابتززته، بالاتّفاق مع زوجك، هجرته، جفوته، أغلقت بابك في وجهه.. وبكلمة: تنكّرتِ له، فلماذا؟ وهل هذا الذي أقوله صحيح أم لا؟

قالت هزار منكسرة:

ـ صحيح ما تقوله وأنا نادمة، فاقبل ندمي الذي هو توبة نصوح.

تقدّمت امرأة وقالت: أنا نائلة وقد جاء دوري.

قال كامل البهاء:

ـ جاء دورك، يا نائلة فعلاً، لكن قصّتك تشبه قصّة هزار.. أنتِ أيضًا خنت زوجك، فلماذا كلّ هذه الخيانات؟

قالت نائلة:

ـ أنا مسؤولة عن نفسي وليس عن سواي، هذا أوّلاً. وثانيًا لم أخن زوجي إلاّ بالجسد وهذه ليست خيانة، ما دام هناك وفاء القلب.. كنت أعزّ زوجي، أقوم بواجباتي الزوجيّة معه، لكنّه هو الذي خانني، دون وفاء القلب هذه المرّة، فمن منّا هو الخائن في رأيك؟

ـ حسب فلسفة وفاء القلب وخيانة الجسد، يكون زوجك هو الخائن، إلاّ أنَّ الفلسفة هذه لا تنطبق على الشرق كما على الغرب، هناك فرق جغرافيّ لا بدّ من أخذه

في الحسبان.

قالت نائلة:

ـ الرّجل، في الشّرق، يتزوّج أكثر من امرأة، وفي وقت واحد. أفلا يخون الواحدة مع الأخرى؟ في رأيي، وهذا اجتهاد شخصيّ، يخون الواحدة مع الأخرى!

ـ اجتهادك ليس في محلّه.. فهناك العدل بينهنّ.

ـ أفهمك تمامًا، فلو أنّ العدل بينهنّ كان متوفّرًا، لكنت على حقّ، غير أنّه في حالات كثيرة لا يتوفّر.. وفي هذا إخلال بركن أساسيّ.. زوجي لم يكن عادلاً بيني وبين الأخريات، وقد اجتهدت، ولي في اجتهادي أجر واحد، حتّى لو أخطأت.. فلماذا ترفض اجتهادي؟

قال كامل البهاء:

ـ أنا لا أرفض ولا أقبل، هذا ليس من شأني.. الذي من شأني هو الاحترام.. إنّني أحترم..

قاطعته نائلة:

ـ لست وحدك من يحترم.. كفى تبجّحًا.. إنّني، في موضوع الاحترام، أشدّ منك حرصًا.. لكنّه. هو، زوجي، مَنْ استباح الأمانة، فكان جزائي من نفس عمله..

ـ هذا تبرير.

ـ ليكن..

ـ ألا تبالين؟

ـ بماذا أبالي؟ بعدالة الرّجل؟ بحكم الرّجل؟ بإدانة الرّجل؟ ثمّ مَن أنت؟ تهرب من المرأة وتحاكمها، تخرجها من رأسك وتجور عليها؟! كلّ دورك أن تسمع.. وهذه قصّتي فاسمعها دون أن تقاطعني.. اسمعها وانصف في حكمك عليها.. إلاَّ أنّني أشكّ سلفًا في هذا الإنصاف، تعرف لماذا؟ لأنّك، في هروبك من المرأة، تدين المرأة، تمارس في لاشعورك حقدًا عليها.. كاذب أنت في ادّعائك الحياد يا كامل البهاء، كاذب أشِر!

قال كامل ببرود:

ـ إنّني، الآن، لا أهتمّ إلاَّ بما هو في رأسي. أنتِ خارج رأسي.. لذلك لا أهتمّ بك، وليس من قوّة يمكن أن تغيّر من رأيي حيال المرأة.. قولي ما تريدين وسأسمع، من دون أن أقاطعك، من دون أن أدينك، أو أن أحظر عليكِ حقّ الاجتهاد، أو أسدّ بابه.. سأصغي إليك، أتفهّم حجّتك، وبعد ذلك أحاورك حولها. لماذا خنت زوجك؟

قالت نائلة:

ـ الحبّ، يا كامل، ليس خيانة. أنا أحببت ولم أخن، أحببت بصدق. ألم تقل: «كلّ ما نفعله بصدق هو أخلاقيّ»؟ كان فهد جاري، وجاري هذا كان جميلاً، والله جميل يحبّ الجمال، فأين الخروج على طاعة زوجيّة

مزعومة؟ إنّني مؤمنة. ومن الإيمان أن نكون أنفسنا وليس غيرنا، وقد كنت نفسي، ونفسي أحبّت، فأين الإثم في هذا؟

بدءًا رأيت القمر في وجه فهد، وكذلك الرّجولة. هذه تفتنني. رجولة الرّجل تفتنني. فإذا خفق لها القلب كان التوافق. وبالمقابل كانت أنوثتي طاغية، وأصرّح، دون خجل، أنّها كانت جائعة، وماذا يسدّ الجوع سوى الشبع؟ هنا يحسن الانتباه. الجائع يتحلّب ريقه إلى الطعام، فإذا رآه أقبل عليه، وهذا من حقّه. والأمر ذاته مع الجسد. . البطن الجائع مثل الجسد الجائع تمامًا، وكان جسدي جائعًا. ولا بدّ، في هذه الحال، من إشباعه. كان يناديني. . وكيف سبيل المرأة إلى سدّ أذنيها عن سماع نداء رغبتها؟ ستقول: المرأة الشريفة تفعل، تسدّ أذنيها وتفتح عقلها، تحتكم إليه، والعقل يوقظ الضمير، وحين يستيقظ الضمير يردع عن المعصية، شرط أن تكون هناك معصية؛ وللوهلة الأولى، وجدت ممارسة الحبّ مع فهد معصية. ومن هنا بدأ الصراع بين الرّفض والقبول، رفضت طويلاً، قاومت طويلاً، إلى أن بلغني، مع اليقين، أنّ زوجي يخون نساءه مع غيرهنّ. عندئذ قرّرت الانتقام: أن أخونه مع غيره!

لا تسل أين الوفاء. دع عنك فلسفته التي تنكرها. . أنت رجل، وكلّ شيء في هذا الشّرق مباح للرّجل، ولأنّ ذلك كذلك، فإنّه يتّبع أهواءه، يجري وراء المرأة، حتّى لو

كانت عاهرة. ما إن تشير إليه يفعل ذلك بعفويّة، شرعيّته مستمدّة من ذكوريّته، من انتفاء الصراع في نفسه، بين المعصية واللاّمعصية.. يخون حبيبته، عشيقته، زوجته، بسهولة شرب الماء، معتبرًا ذلك من حقّه. والحقّ واحد، إذا زاد هنا نقص هناك، يضاجع الأخرى على حساب أخرى، ينكح تلك على حساب هذه، يُشبع امرأة فيُجيع امرأة، يشبع هو فتجوع زوجته. يهملها، ينساها، يعتبرها قطعة من أثاث منزله، يتجاهل نبض الحياة، وتاليًا الشهوة، في عروقها، يمعن في هذا، يستغرقه إمعانه. لا يمسك زوجته بالواجب، لا يطلق سراحها بالمعروف، فماذا تفعل الزوجة؟ تصبر؟ أنا صبرت. إلاّ أنَّ زوجي لم يرعوِ، تمادى في خيانتي وهجري، كما يتمادى بعض الرّجال، أو أكثر الرّجال، في خيانة زوجاتهم وهجرهنّ. ورغم ذلك خزيت الشيطان، قلت: «لا بأس! سأصبر» وطال صبري، طال استمساكي بنهي عقلي، إلى أن جاء يوم انتقمتْ فيه عاطفتي من عقلي، فكان الذي كان، وأنت تفهمني.

قال كامل:

ـ أرغب في أن أفهمك، ولكن..

ـ لكن ماذا؟

ـ الزواج عقد بالتراضي، عقد شرعيّ، إنّه القانون. فإذا خرج الرّجل على هذا القانون، فليس للمرأة أن تخرج

عليه بالضرورة، أو حتّى من باب الانتقام، عليها أن تراعي قانون الزواج وشرعيّته.

قالت نائلة:

ــ أنا أيضًا أفهم القانون، وأراعي شرعيّته، لأنّني خرِّيجة حقوق، وأعرف حكمه في موضوعة الشرف، لكنّ القاضي العادل لا يأخذ بالنصوص القانونيّة بحرفيّتها، متجاهلاً الدوافع المؤدِّية إلى الخروج عليها. العدل أن نتفهّم الأسباب، ونجيد تفسير القانون في ضوئها.. عمر بن الخطّاب كان أكبر القضاة وأعدلهم. رفض، في عام المجاعة، قطع يد السّارق.. هذا ليس بإطلاق، لست مع المطلق، إنّني، إذا أردت أن تعرف، مع الاحتراز، إلاَّ أنّ الجوع، في كافّة أشكاله، هو الجوع، هو الألم. أبو بكر الرّازي، في تاريخنا، اكتشف قانون الألم واللّذّة، قال إنّهما يتعاوران، الألم ينفي اللّذّة، اللّذّة تنفي الألم، كما الموت ينفي الحياة، والحياة تنفي الموت. هذا ما يسمّونه، فلسفيًّا، نفي النفي. الحياة تبقى لأنّها نافية، اللّذّة تنفي الألم للسبب عينه، إنّنا نبارك الحياة، فلماذا نلعن اللّذّة؟ نقول، نعترف، نؤمن بغريزة الدّفاع عن الحياة، فلماذا نجحد غريزة اللّذّة التي تنفي الألم وتضمن سيرورة الحياة؟

قال كامل البهاء:

ــ اختصري، يا نائلة، من هذا العرض النظريّ النافل.

صاحت نائلة:

ـ كيف نافل؟ هل يُفهم القانون بغير حيثيّاته؟

ـ وإذا كنت مثلك، أعرف هذه الحيثيّات؟

ـ ما نفع ذلك إذا كنت تعرفها نظريًّا، وتتجاهلها واقعيًّا؟

ـ لي أسبابي في ذلك.

ـ أسبابك خاطئة.

ـ كليني لخطأي.

ـ قل هذا لذكوريّتك! أنت، يا كامل، ذكر ومن هذا الشّرق أيضًا.. أنت هارب من الحقيقة وليس من المرأة، يا لك من تعيس!

ـ أعترف. أنا تعيس حقًّا، ولكن لأسباب أخرى.

ـ أسبابك وهميَّة، وأنت مرتاح لهذا الوهم، متعلّق به، تبحث، في هذه الغابة، عن فكرة لها سند من حقيقة، من دون طائل. أنت تتسقّط أخطاء النساء، كي تبرّر حكمك الفاسد على المرأة، دون أن تنتبه إلى المقولة الفقهيّة: «ما بني على فاسد فهو فاسد». دون أن يؤنّبك ضميرك على قسوتك بحقّها، ابحث في ذاتك، عدّ على أصابعك، تجد مَن خنتهنّ من النّساء، أكثر من النّساء اللّواتي خنّك، فمن هو المخطئ ومَن هو المصيب؟ والحقّ، بعد كلّ شيء،

على مَن!؟

ـ على المرأة!

ـ لا فائدة إذن يا كامل!

ـ تمامًا.

قالت نائلة:

ـ لو كنت زوجتك لما كنت وفيّة لك.. مسكينة زوجتك، تخونها وتعرف خيانتك، تتألّم صامتة.. وفاؤها نادر، ألمها نادر، صمتها نادر. وهذا ما أطمعك، هذا ما أبطرك. وعندما شبعت من النّساء، قرّرت، كيدًا، إخراجهنّ من رأسك بغير نجاح. أنت، يا زنيم، تستحقّ الموت، هذا الذي قد تكون، الآن، تتمنّاه لترتاح، لكنّك لن ترتاح حيًّا وميتًا.. إنّه انتقام السّماء، أخذها بالثأر، إنّها تثأر للمرأة منك.

ـ وماذا بعد هذا الرّغي؟

ـ ما قلته ليس رغيًا، وأنت تعلم.

ـ أنا لا أعلم سوى أنّ دورك انتهى! انصرفي بسلام.

* * *

بعد نائلة جاءت سليمى، تقدّمت من كامل، وقالت:

ـ وبعد يا كامل، أيّها الشقيّ ذاتيًّا، متى توفّر على

نفسك وطأة هذا الشقاء؟

أجاب كامل:

ـ من زعم أنّني شقيّ؟! أن يبتعد الرّجل عن المرأة فتلك هي السعادة.

ـ يخيّل إليك هذا مؤقّتًا.. مصيرك أن تعود إلى رشدك أيّها المأفون، مصيرك أن تدرك وأن تؤمن أنّ ناموس الحياة لا ينقضه سوى ناموس الموت، وما دمت حيًّا عبثًا تحاول إخراج المرأة من رأسك. إنّني أستاذة جامعيّة، وأنت لست بطالب عندي، فكيف أصنع لأعلّمك أبجديّة العيش؟

قال كامل:

ـ تعلّميها أنتِ أوّلاً! لماذا تنفرين من زوجك؟ لماذا تمنعينه من حقّه الذي قال به الشرع؟

قالت سليمى:

ـ لأنّ فمه أبخر!

ـ كان عليك، إذن، ألاّ تتزوّجيه!

ـ وهل أنا الذي تزوّجته؟ كنت صغيرة، وكان، لسوء الحظّ، ثريًّا، وقد غرّ ثراؤه أهلي الأثرياء، فزوّجوني منه بالقوّة.. وبعد ذلك اكتشفت أنّه أبخر الفم!

ـ صارحي أهلك وأهله بالحقيقة.

ـ قلت لك: الحقيقة تكشّفت بعد الزواج. نحن، هو وأنا، من مدينة بعيدة، في أقصى الرّيف، فهل تحسب أنّ البنت تقبّل الشاب قبل الزواج، في ريفنا البعيد؟ كان ذلك قبل ثلاثين عامًا. كنت في الإعداديّة بعد، لم يكن رجل قد لمس يدي بفرض. كنت عمياء في مثل هذه الأمور، جاهلة بها جدًّا، وقد تحمّلت، بعد الزواج، بخار فمه الكريه.. وهكذا أنجبت منه ولدين. وبعد الأولاد يصبح القيد مضاعفًا في يدي المرأة، فماذا أفعل؟ قل أنت! ليس لك ما تقوله؟ حسنًا! سأقول أنا: لم أخن زوجي لكنّني انفصلت عنه.

ـ بالطّلاق؟

ـ والثروة؟ كيف يطلّقني، وهو في الأساس تزوّجني لأجل ثروتي من أهلي، باعتباري البنت الوحيدة لأبويّ؟

قال كامل:

ـ وما الحلّ؟

قالت سليمى:

ـ هذا ما جئت أسألك عنه.

ـ حلّ المشاكل ليس من اختصاصي.

ـ والحكم على المرأة، دون سماع دفاعها، من اختصاصك؟

ـ أنا لم أحكم عليكِ.

ـ حكمت على بنات جنسي، وأنا جئت للدفاع عنهنّ.

ـ ضدّي؟

ـ ضدّك أيّها الكاره للمرأة، الهارب إلى الغابات منها، من دون أمل بالخلاص.

ـ الخلاص من شأني، أقدّره وفق معطياتي.

ـ خلاصك بالمرأة، لا دونها، أو بغيرها..

ـ هذا ما أقرّره أنا، لا أنت!

ـ هذه أمور تقرّر بصورة مشتركة.. الرّجل، بغير المرأة، يكون قراره أحاديًّا، والأمر نفسه بالنّسبة للمرأة أيضًا.

ـ أحتجّ. أنت تتدخّلين في شؤوني الخاصّة.

ـ وأنا أحتجّ على احتجاجك.. ماذا لو نجحت فيما انتويت؟ تصبح قدوة، وقدوة سيِّئة. فمَن الذي يضار في هذه الحال؟ المرأة.. إذن أنا أدافع عن حقّ المرأة ضدّ اعتساف الرّجل! ضدّ اعتسافك أنت بالذّات.

ـ أين العَسْف إذا تركت المرأة وشأنها؟

ـ هل أنت ضرير؟

ـ وهل يترك الضرير المرأة لأنّه ضرير؟

ـ قد يفعل، لأنّه لا يرى التفّاح في وجناتها.. أما سمعت قول الشّاعر بدويّ الجبل لأبي العلاء المعرّي:

يا ناكر التفّاح في وجناتها لو ذقت بعض شمائل التفّاح!

أنت ذقت شمائل التفّاح، فما هو عذرك في التنكّر له؟

ـ عذري أنّني شبعت منه، بل بشمت وما ينتهي التفّاح ومتاعبه، فإلى متى؟ أجيبي: إلى متى!؟

ـ إلى أن تعترف أنّ الحقّ، في هذا التنكّر للمرأة، عليك لا عليها.. أنت، يا سيّدي، تتّهم المرأة بالخيانة متناسيًا أنّ مقابل كلّ امرأة خائنة رجل خائن. هذا مع التحفّظ على كلمة خيانة، التي نطلقها، في هذا الشّرق، على اليمين واليسار، ومن أمام وخلف.. يا كامل! اتّق الله في ما تفعل.. عد إلى رشدك واقلع عن اتّهاماتك. المرأة وفيّة مثل الرّجل على الأقلّ. أمّا عدم الوفاء فله أسباب كثيرة، بعضه مبرّر، لأسباب تعرفها، أم أنّك مثل الوجوديّ كامو، تريد أن تعرف ما كنت تعرفه مرّة أخرى، وهذا تكرار!؟

ـ نعم! أريد أن أعرف ما كنت أعرفه مرّة أخرى، وهذا، لعلمك، ما حصل. النساء اللّواتي قبلك اعترفن، أو أنّهنّ لم يستطعن دفع التهمة الموجّهة إليهنّ.

صاحت سليمى:

ـ كفى لغوًا أيّها الفاسق، الذي يتّهم سواه بالفسق.

وكفاكم لغوًا أيّها القضاة العور. أَمَا بلغك قول من قال: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر»؟ وهل تجهل أنّ الحجارة التصقت بأكفّ حامليها؟ ليس من إنسان بلا خطيئة، حتّى يحقّ له أن يتّهم سواه بها.. نحن بشر، والبشر خطاة، وليس من معصوم إلاً أصحاب العصمة.. قبل أن ترى القشّة التي في عين غيرك، انزع عمود القشّ الذي في عينك.. عندئذ، فقط، ترى جيِّدًا. لا تقل لي ما قلته لمن كانت قبلي: «هيّا اغربي عن وجهي!». أنا التي تقول لك: «هيّا اترك هذه الغابة، لأنّك تروم مستحيلاً، ولن تستطيع اليوم، أو غدًا، أو بعده، أن تنزع المرأة من رأسك. فهذا الذي عناه سفر الجامعة بقبض الرِّيح! ألم تقرأ، أنت المثقّف، سفر الجامعة؟ إذا كان جوابك بالنفي فأنت لم تقرأ شيئًا، وإذا كان جوابك بالإيجاب فإنّ سفر الجامعة، كما لا بدّ أن تذكر، قال: «باطل الأباطيل باطل، الكلّ باطل، الكلّ قبض الرِّيح!» ماذا فهمت من هذا؟ الباطل يبقى باطلاً، وتنكّرك للمرأة باطل، لذلك يبقى باطلاً.. يبقى ككلّ أباطيل هذه الحياة الفانية، لكنّ الحياة الباقية، بالعمل المثمر الباقي، لا تكون باطلاً أبدًا.. سفر الجامعة، كما افترض، كان متشائمًا، كان، مثلك، يائسًا. ويأسه، كما هو ظاهر من النصّ، كان يأسًا أسود، وفي هذا تعميم غير جائز. ليس من شيء مطلق، حتّى ولا الحقيقة نفسها.. الأشياء في هذا الوجود نسبيّة، فمن أنكر النسبيّة أنكر الحقيقة، هناك وفاء نسبيّ، وهناك أيضًا عدم

وفاء نسبيّ. هناك قبول نسبيّ، وهناك أيضًا رفض نسبيّ. فإذا ما كان القبول مطلقًا، كان الرّفض مطلقًا.. فأين نسبيّة الحقيقة في هذا؟!

قال كامل البهاء متململاً:

ـ إلى أين تريدين الوصول يا سليمى؟

أجابت سليمى:

ـ أَوَلَمْ تُدرك بعد؟

ـ أدركت جيِّدًا دفاعك الحارّ عن المرأة.

ـ دفاعي الحارّ كان عن وجود المرأة!

ـ وما الفارق؟

ـ كبير!

ـ المرأة هي وجودها، ووجودها هو إيّاها!

ـ وأنت تنكر وجودها لتنكرها.

ـ وجودها أين؟

ـ في رأسك طبعًا!

ـ ألست حرًّا في إخراج ما في رأسي؟

ـ إذا كنت حرًّا في إخراج دماغك من رأسك!

ـ هذه مماحكة.

ـ لكنَّها مفيدة، تحمل رؤياها.

ـ هذا تعجيز يا ابنة الأبالسة، كيف أخرج دماغي من رأسي وأبقى حيًّا؟

ـ وهذا تلبيس يا ابن الشياطين، كيف تخرج المرأة من رأسك وتبقى حيًّا؟

ـ أستطيع إخراجها وأبقى حيًّا.

ـ وهذه حياة؟

ـ حياة هادئة، لطيفة، مثل الحياة في الغابة.

ـ تتنسّك؟

ـ ولِمَ التنسُّك؟

ـ كي تموت وأنت حيّ.

ـ أعيش، وأعيش، وأعيش.

ـ وتملّ العيش يومًا بعد يوم.. لا غنى للإنسان عن النّاس.

ـ في الدّير يوجد ناس.

ـ ترهبن!؟ تذكّر أن لا رهبنة في الإسلام.

ـ آتي بمن أعيش معه.

ـ وهل أنت شاذّ؟

ـ أنا رجل سويّ.

ـ لا بدّ من أخرى بدل الآخر، في هذه الحال.

ـ حصار؟!

ـ تبصير بالعواقب.

ـ وتنقلب الأدوار! المستمِع يغدو مستمَعًا.

ـ المتَّهِم يغدو مُتَهَمًّا.. أما كفاك أنّك اتّهمت، وأدنت، كلّ النّساء الأخريات؟

ـ من فمهنّ أدنتهنّ!

ـ وبذلك برّرت لنفسك عداوة المرأة، يا عدوّ المرأة!

ـ كنت على الحياد دائمًا، أصغي إلى خيانات النّساء من دون تدخّل من طرفي. هنّ جئن إليّ، وهنّ اعترفن لي، وباب الحوار كان مفتوحًا.. إنّني من أنصار الرأي والرأي الآخر.

ـ تذكّر أنّك قلت لكلّ واحدة: أعرف قصّتك سلفًا، وحاورتها بعد ذلك على أساس أنّها خائنة، أي وضعتها موضع الدفاع عن نفسها، من دون أن تأخذ بدفاعها.

ـ قلت لكِ اعترفن ولم يدافعن، التهمة ثابتة على كلٍّ منهنّ.

قالت سليمى:

ـ أنا لست محامية، لكنّني درست، إلى جانب الأدب

العربيّ، الحقوق، ويمكنني القول إنّني ملمّة بها جيّدًا. الاعتراف سيّد الأدلّة، إذا توفّر له الإثبات، وكلّ إثبات يحتاج إلى معرفة الدوافع إلى الجرم، إلى أخذ الحاجة التي دفعت إليه بعين الاعتبار، ومع الافتراض أنّ معرفة غير الزوج خيانة، ومع الإغضاء عن الطرف الآخر في هذه الخيانة وهو الرّجل، يبقى أنّك لم تقم وزنًا لأيّما دافع وأيّما حاجة، لذلك أطعن في الاستنتاجات التي توصّلت إليها، والتي تشكّلت قناعاتك ضدّ المرأة على أساسها.. أنت كنت تبحث عن مبرّرات لا عن حقائق، مبرّرات تعزّز قرارك في الابتعاد عن المرأة، وهذا ما تحقّق لك، وما استرحت إليه، إلاّ أنّني جئت لأهزّ قناعاتك، إذا لم أقل أنقضها نقضًا! ما هو جوابك؟

ـ جوابي بسيط: جئتُ إلى هنا..

قاطعته سليمى:

ـ هربت إلى هنا..

ـ لا أجادل، هربت إلى هنا. الهرب من حقّي، أليس كذلك؟

ـ يبقى سؤال أساس: لماذا هربت؟ لو جئت بغير سبب، لنشدان الرّاحة وحدها، لكنت حرًّا في ما تفعل.. من حقّ كلّ إنسان أن يهرب من ضجيج المدينة إلى سكينة الغابة، إلى قدسيّتها وطهرها، لكنّك أنت هربت من المرأة

في المدينة، وعلى لسانك قرار اتّهامك، فجاءت النّساء وراءك لتروي كلّ واحدة حكايتها، وكانت مصادرتك الأولى زعمك أنّك تعرف هذه الحكاية، ومصادرتك الثانية أنّك رويت هذه الحكاية على هواك، من طرف واحد ووجهة نظر واحدة، قوامها أنّ صاحبة الحكاية خائنة، أو محتالة، أو متواطئة، أو قوّادة.. وصدق المتنبّي الذي قال: «فيك الخصام وأنت الخصم والحكم»!

ـ طلباتك؟

ـ إعادة الاعتبار للّواتي حكمت عليهنّ، أو إعادة قصّ حكاياهنّ بحضوري.

ـ لا هذا ولا ذاك.. انتهى الكلام معك. دور التي بعدك، وباختصار شديد: ماذا يا ميسون؟

ـ أرفض الوصال مع زوجي، لأنّه لصّ ونذل!

ـ هذا من حقّك..

وأنت يا زينب؟

ـ أخون زوجي لأنّه يخونني، وهو البادئ، والبادئ أظلم!

ـ الخيانة الزوجيّة مرفوضة في الحالين، ومن قبل المرأة خصوصًا..

وأنتِ يا سميرة؟

ـ زوجي لا يلبّي طلباتي، حتّى المتواضع منها، وأنا حائرة بين أن أحبّ عليه، أو أتّخذ من الحبّ ستارة لقضاء أغراضي.

ـ حبّ غير الزوج مكروه، ومنكر في كلّ الأحوال.. في الصبر السلامة وفي العجلة الندامة.. اصبري وصابري، واستعيني بالله عليه.. التي بعدك.

أنت يا كاترين.. ما بك؟

ـ أنا أكذب على زوجي خوفًا من زوجي.. إنّه شرِّير. فماذا أفعل؟

ـ الكذب حرام في كلّ الأحوال، وحبله قصير.. أمّا زوجك الشرِّير فعالجيه عند الخوري.. اطلبي من كاهن الكنيسة أن ينصحه حتّى يصبح رجلاً صالحًا..

وبعد؟ أنت الأخيرة يا سعاد، ما قصّتك؟

ـ أنا شاعرة، والشعر لا بدّ له من تجربة، هل أتوب عن التجربة أم عن الشعر؟

ـ توبي عن الاثنين: الشعر غواية والتجربة غواية، فحذار الغوايات لأنّ عاقبتها وخيمة..

صاحت النّساء بصوت واحد:

ـ نصائحك خرقاء يا كامل البهاء، فيها سلق ومغالطة وتضليل.. وفيها قسوة غير مبرّرة، ودفع في طريق مسدود.

قالت ميسون:

ـ إنّها نصائح رجل..

قالت سليمى التي كانت حاضرة:

ـ لا! إنّها نصائح ذكر!

II

الندم!

ـ ١ ـ

انتقل كامل البهاء إلى غابة أخرى، غابة بعيدة كثيفة، كأنّها غابة في قلب غابة، قرّر أن يستقرّ فيها، مدركًا منذ اللّحظة الأولى أنّه في حاجة إلى الآخر، إنسان ما يؤنسه، يقوم على خدمته، يؤمّن له ما يحتاجه من طعام وماء، إضافة إلى ما يحمل معه من معلّبات وأشربة، قليلة نسبيًّا، إلاَّ أنّه يستطيع، كلّ أسبوع، أن يرمّمها، يجدّدها، يضيف إليها، ريثما يستملك الأرض، يستنبت الزّرع، يعيش في هدوء وراحة، على النحو المرسوم في مخيّلته، هذه التي لا تنقصها فبركة الأحلام، من كلّ الأنواع، وبينها طبعًا النوع الذي يزيّن له الحياة جنّة هنا، وأنّه كان على صواب في الهروب إلى هذا المكان، والعثور عليه، بعد تنقّل في عدّة غابات، طاردته فيها النّساء، اكتشفن مكانه، قصصن عليه قصصهنّ. بعضها يعرفه، وبعضها تعرّف إليه، وبعضه الثالث تخلّله حوار طويل يبعث على السّأم.

ولأنّ كامل رجل سويّ، في نضج العمر، أو جاوزه قليلاً إلى تخوم الهرم، فقد كان كرْه المرأة والهرب منها، بمثابة لوحة غرائبيّة، راحت ألوانها تتصوّح، تبهت مع الأيّام، لينبثق مكانها نزوع إلى حياة أخرى، خالَ نفسه أنّه ودّعها إلى الأبد، فيها توق إلى الجمال، عَتَبٌ عليه، تمثّل في قصيدة أحمد شوقي: «سلوا قلبي غداة سلا وتابا / لعلّ على الجمال له عتابا // ويُسأل في الحوادث ذو صواب / فهل ترك الجمال له صوابا؟»

في البدء، كان عزاءه الوحيد أنّ الآخر معه، كان شابًّا في الثلاثين من العمر تقريبًا، تعوزه الملاحة لا اللّسان، اعتمده أصلاً كرجل ارتباط بينه وبين القرى المجاورة، وبعد أن استملح حديثه جعله جليسه على الطعام، ونديمه على الشراب، وكان الشاب، واسمه باكير، ينقل إليه كلّ ما يسمع، ويحمل إليه أخبار ما يجري في الجوار، ويصغي إليه وهو ينثر رؤاه المستقبليّة، عمّا يريد أن يُحدث في هذه البقعة الغابيّة، التي قرّر أن يقضي فيها بقيّة عمره.

قال باكير:

ـ أوّل ما يجب، يا معلّمي، أن تشتري الأرض، أو تستأجرها ما دامت من أملاك الدولة، ثمّ تبني غرفة لك، وأخرى لي.. وهذا، كما تعلم، يحتاج إلى مال كثير، فهل لديك من المال ما يكفي؟

قال كامل البهاء:

ـ لديّ منه ما يكفي لما تقول.

ـ وعندما ينفد هذا الذي يكفي؟

ـ يفرجها الله.

ابتسم باكير بخبث وقال:

ـ الله، سبحانه وتعالى، لا يضع المال في أكواز الصنوبر.

ـ قد يضعها في صرّة بين الأدغال.

ـ أو ربّما في جذوع الصنوبر.

استقام كامل في جلسته وقال:

ـ لا! في جذوع الصنوبر لا يضع المال بل النّساء!

ـ أنا لم أسمع قبل الآن بوجود امرأة في جذع صنوبرة.

ـ لكنّني، أنا، سمعت، ورأيت.

ـ في الحلم أم في اليقظة؟

ـ في اليقظة يا باكير.

نظر باكير إلى كامل مستغربًا. كان، منذ رآه، قد تساءل: «ما هو سرّ هذا الرّجل؟ هناك احتمالان: أن يكون به مسّ من جنون، أو أنّه فار من وجه العدالة! لكنّ الأمر،

في الحالين، لا يعنيني كثيرًا، فأنا مدرّس ابتدائيّ، لديّ عطلتي الصيفيّة، وهذا الرّجل يدفع لي أجرًا مضاعفًا، ولسوف أعرف قصّته مع الأيّام، فإن راقني العمل معه بقيت، وإلاَّ قبضت أجري وتركته لوحوش الغابة!»

قال وهو يتفرّس وجه كامل:

ـ أنت تجدّ أم تمزح؟ منذ طفولتي وأنا في الغابة، ولم أر امرأة في جذع صنوبرة.

ـ أنا رأيت!

ـ امرأة حقيقيّة؟

ـ نساء حقيقيّات!

ـ وماذا فعلت بهنّ؟

ـ أرسلتهنّ إلى المرِّيخ!

ـ قبل أن. . .

ـ نعم! قبل أن. . .

ـ هذا لا يُصدّق يا هو. .

ـ لا تصدّق إذن.

ـ سأصدّق على شرط: إذا رأيت، بعد اليوم، امرأة في جذع شجرة لا ترسلها إلى المرِّيخ، دعها لي.

ـ وماذا تفعل بها؟

ـ وماذا يفعل الرّجل بالمرأة. . في غابة كهذه؟

ـ يهرب منها.

ـ رجل يهرب من امرأة!؟ هذا مستحيل، ولكن ربّما!. ربّما. . لنرجع إلى مسألة الأرض، هل ستشتريها؟

ـ من كلّ بدّ. .

ـ والبناء؟

ـ سيكون جاهزًا قبل الشتاء.

ـ يبقى السلاح.

ـ غدًا سأطلب رخصة لبندقيّة ومسدّس.

ـ والأشجار؟

ـ سنقطعها.

ـ والأرض؟

ـ سنزرعها بالزهور والأشجار المثمرة.

ـ ستنشئ، إذن، مزرعة.

ـ نعم!

ـ فهمت الآن. .

ـ الحمد لله على السلامة.

قال باكير وعيناه تضحكان:

ـ لنشرب شيئًا إذن في صحّة المشروع الجميل.

ـ لنشرب.. ولكن هل تراه مشروعًا جميلاً حقًّا؟

ـ وتسأل بعد؟ المثل يقول: «ضع الملح على الجرح يشْفَ.. وضع الحَبَّ في الأرض يفرع». ما ينقصك، يا معلّمي، المرأة.. هذا المشروع الجميل يحتاج إلى امرأة جميلة، ما قولك؟

ـ سنعثر عليها في الغابة.

ـ امرأة في الغابة؟

ـ جنِّيَّة الغابة!

ـ بدأت أشكّ يا معلّمي. زدني من هذا النبيذ.. أنْ أسكر أفضل من أن أجن.. أنت، بكامل عقلك، تبحث عن جنِّيَّة الغابة؟

ـ أنا، يا باكير، بكامل عقلي أبحث عن جنِّيَّة الغابة.. وكفاك شرابًا!

ـ كما تريد.. كما تريد.. لكن.. لا بأس.. لا شيء.. الأفضل أن أذهب إلى القرية لشراء ما تحتاجه.

ـ اذهب إلى القرية بغير ثرثرة.. ولا كلمة عنّي وإلاَّ قطعت لسانك.

ـ هل أنت خائف؟

نبر كامل البهاء:

ـ أخاف من ماذا؟ لا يأخذ الأمانة إلاَّ الذي وضعها.

ذهب باكير إلى القرية، ذهب كامل ليبحث عن جنِّيَّة الغابة. كان خياله النشط يخلع عليها بهاء سماويًّا!.. ذات ضحى، أو ذات أصيل، سيجدها فجأة أمامه، في دغل، على رابية، في أجمة من أشجار الصنوبر الفتيّة النضرة، أو تسبح في ينبوع ماء ينحدر من خاصرة الجبل، جسمها مورّد، خصرها خيزرانيّ، قامتها فارعة، صدرها مبرعم، كرمّانتين في أوّل استدارتهما، ومكان الزهرة الحمراء، حلمة كمنقار حجل، لها شكل فتاة صينيّة رآها مرسومة على مزهريّة.. في القديم كان الآباء الصينيّون يضعون قدمي الفتاة في قالب من حديد، حتّى لا تكبر، ويقمطان صدر الفتاة بمشدّ عصْبي كيلا تكبر الغدّتان، فجاءت الثورة الصينيّة وبدّلت المفاهيم، لم يعد ثمّة حديد في القدمين، أو عصبة على الصدر، كبرت إلى حدّ ما، قدما الفتاة، نمت إلى حدّ ما غدّتاها، صار لها صدر صغير، طفلي البرعمة، وصار النهد كافيًا ليلقمه الطفل، ويمصّ حلمته الحبيبة. بات هذا الصدر موضع فخار كلّ صينيّة، ورمزًا لجمالها، تعتزّ به أكثر من كلّ جوارحها الأخرى.. كامل كان يؤثر مثل هذا الصدر، يحلم به، يشتهيه. يكره بالمقابل، الصدر الكبير، ذا البطّيختين الصفراوين، حتّى ليخيّل إلى رائيه أنّ طفلاً ينام هناك، في صدر المرأة البقرة!

جنّيّة الغابة سيكون لها صدر فتاة صينيّة، وهي موجودة، ما دامت جنّيّة القمر موجودة. وحين يلتقيها سيصطفيها، سيعانقها كلّ صباح، كلّ ظهر، كلّ مساء. سيطلق عليها اسم «زهرة الرمّان». وفي اللّيل، أو في القيلولة، داخل الكوخ، أو في الغرفة التي ستبنى، تكون التعرية، يعرّيها من ثيابها، يطلب منها أن تقف ويركع أمامها، يتأمّل، بتأنٍّ، ساقيها، فخذيها، حوضها، بطنها، سرّتها، صدرها، وبعد هذا التملّي ينهض إليها ليعانقها، ليقبّل شفتيها الجوريّتين، ليضمّها إلى صدره بقوّة، بحرارة، وبعد ذلك يمدّدها على الفراش، ويكون ما يكون..

هناك، على أطراف الغابة، على ضفاف الغدران، بعض الرّعاة، بعض الراعيات.. هنا، في غابة الغابة، ليس سوى جنّيّة الغابة. إنّه يثق بوجودها كما يثق بوجوده، وكي تتجسّد أكثر، لا بدّ من تشخيصها. نقلها من الخيال إلى الحقيقة، رسمها على الورق، اعتمادًا على تمثّلها في الذهن، وقبل أن ينطلق للبحث عنها، كان قد رسمها في أوضاع مختلفة، حركات مختلفة، كاسية، عارية، واقفة، مضطجعة، على الظهر، على الصدر، ممدّدة الساقين، مرفوعتهما، معكوفة السّاق الواحدة، لإظهار استدارة الركبة، بطن الركبة، جمال السّاق، اتّساق تكوينه، تناسق البطن، سرّته، تكوّر النهدين، شموخهما، مجرى اللّذّة بينهما، طريق الحرير الفاصل بينهما، اتلاع العنق، امتلاء

عضلتي الكتفين، الوجه، الثغر، الوجنة، رمحيّة العينين، انفلاش الشعر، سواده، تبعثره، كبرقع، على الجبين، الهدبين، الذقن، العنق، الصدر، تطايره في الهواء، انسباله على الظهر، القفا في حال الإدبار عارية، الواجهة الجسديّة، في حال الإقبال عارية، استدارة الردفين، بياضهما، تربربهما، اتّصالهما باستقامة، بملاسة، في الفقرات القطنيّة، عموديّة القفا، اندغام عظم الرفشين، انفراع العمود الفقريّ. . رَسَمَ، رسم، رسم. تعب كامل من الرّسم، عشق الرّسم، جنّ به، هام على وجهه بحثًا عن صاحبة الرّسم، عن جنّيّة الغابة!

وقف على رابية عالية، مسدّسه في خصره، عصاه في قبضته، عاين الدخّان المنبعث من النار التي أشعلها، اهتدى به إلى مكان كوخه، هبط عن الرابية، تجوّل في الأنحاء الأربع، صعّد، طوّف، دقّق النظر، أمعنه في الآفاق، رفع رأسه إلى أعلى، تحرّى الصنوبر، نبش في الأدغال، أطار العصافير، أجفل الثعالب والنموس، ضرب بعصاه على جذوع الأشجار، كاد ييأس عندما رنا إلى أعلى، إلى السّماء. . مفاجأة! جنّيّة الغابة توشّح السماء، ترتسم بكلّ ألقها عليها!

وعلى أمل أن تنزل جنّيّة الغابة من السّماء إلى الأرض، وأن تأتي إليه في كوخه ليلاً، هبط كامل البهاء من الرابية إلى حيث يقيم: سكينة الغابة، همسها الذي يسمع ولا

يسمع، نسمات الهواء الرهوة، يرسلها البحر تحيّة للغابة، انحدار شمس الأصيل نحو الغروب.. كلّ ذلك كان لوحة فائقة التأثير، على مشاعر إنسان لجأ، هربًا من المرأة الجميلة، إلى امرأة أجمل: الطبيعة! فكّ كامل أزرار قميصه، تنفّس بعمق، عبّ النسمات المبلّلة بالطراوة ملء رئتيه، أصغى إلى بلبل يغرّد على شجرة قريبة، ابتسم لسنجاب يعربش على صنوبرة، أشاع دفء النهار رائحة زكيّة، منبعثة من الصمغ الصنوبريّ، امتلأ كيانه بالغبطة وفاض، أسبل عينيه على هناءة اللحظة الراهنة، فكّر، بهناءة أكبر، في اللّحظة المقبلة، حين يكون الغروب، وظلال الأشجار تطوي بساطها إلى الصباح التالي، ومع الغروب، أو بعده، في أوّل اللّيل، منتصفه، قبل الصباح، خوف الرّقيب، تأتي إليه جنّيّة الغابة، وبأنامله المرتعشة، يفكّ صدارها، يكشف عن نهديها المكوّزين، نهدي فتاة صينيّة لم يمسسها بشر بعد، وعليهما يمرّر راحتيه.. يا للنّار في راحتيه. ستكون، اللّيلة، له جنّيّته العذراء، هل من صعوبة في فضّ بكارة جنّيّة عذراء!؟

سمع، قريبًا منه، صوت إطلاق نار.. مَنْ هذا القادم إليه؟ مَن المعكّر صفو الغروب، في نوره الذهبيّ، الحريريّ، الملحوش على قمم الأشجار، والمسحوب عنها، رويدًا رويدًا، بيد سحريّة؟ هذا لسان الشمس يلحس عن قمم الصنوبر بقايا رضاب، تُرى تستعذب الشّمس

الرّضاب؟ فمها يقبّل، شفتاها تمتصّان رحيق أفواه غير مرئيّة؟ الشمس أنثى، فمن ذكّرها؟ أنثى بغير ذكر؟ ذكر بغير أنثى؟ وغروب العينين، في رحلة اللّذّة، متى يكون؟ كيف يكون؟ القمر ذكر الشّمس، لكنّهما، مثله ومثل جنّيّة الغابة، نادرًا ما يلتقيان، وربّما لا يلتقيان أبدًا. فعند طلوع الشّمس يغور القمر، وعند طلوع القمر تغرب الشّمس، كيف يكون وصال الشّمس.. كيف يكون عشق القمر.. يبقيان، أبد الدّهر، بغير جماع؟ لماذا هما إذن؟ لماذا الشّمس تشرق، ولماذا القمر يضيء، إذا لم يكن لهما، من جنسيهما، حبيب؟ يريانا في النهار، يبصراننا في اللّيل. نفعل ذلك الشيء، ولا يفعلان مثله؟ أيّ صبر؟ أيّ احتمال، أيّة حرقصة؟ فيروز صاحت: «لا تحرقصو، لا تحرقصو، لا تحرقصو». حرام أن نحرقص الشمس، وحرام أن نحرقص القمر، إلاّ أنّ الرّؤية، ولو اختلاسًا، لها لذّتها أيضًا، والسمع، ولو تنصّتًا، له لذّته أيضًا.. نحن إذن نلذّ الشّمس والقمر دون أن ندري؟ من المؤكّد أنّنا نصنع لهما لذّة دون أن ندري!

بعد قليل، مع آخر خيوط النور، خرج باكير من بين الأشجار وفي يده الأرنب الذي اصطاده.. هو من أطلق النّار، أطلقها فأصاب. يا له من صيّاد ماهر، يا له من لقيّة في هذه الغابة!

باكير شابّ تركمانيّ، من جهات قسطل معاف، في

منتصف الطّريق بين اللاّذقيّة وكسب، تركمانيّ رومانسيّ، يحبّ الغابة، الصّيد، السهر، الغناء، الشراب، الأكل، والمرأة خصوصًا. أين كنت يا باكير؟

ـ في الضيعة يا معلّمي!

ـ ولماذا تأخّرت؟

ـ حتّى قضيت جميع حاجياتي.

ـ ومنها أيضًا؟

ـ نعم! منها أيضًا، لي عشيقتي يا معلّمي، امرأة من الواقع وليس من الوهم.

ـ الوهم لم يعد وهمًا يا باكير، رأيتها اليوم بعينيّ الاثنتين.

ـ أين؟

ـ مرسومة على صفحة السّماء.

«الوهم بدأ ينقلب إلى هلوسة».

ـ ومتى تأتي إليك؟

ـ اللّيلة!

ـ لا بدّ من الاحتفال، ابتهاجًا بقدومها.

ـ قدومها هو احتفال بذاته.

«حين ينكشف الوهم، يكون صاحبه أمام مفترق: العقل أو الجنون».

ـ مع ذلك لا بدّ من الاحتفال، وأنا من يصنعه.. أحضرت «لوكسًا» لإنارة الغابة، ولديّ ورق ملوّن باعتباري معلِّمًا ابتدائيًّا، وسأسلخ هذا الأرنب وأشويه، ولديك النبيذ الفاخر، وصوتي يصلح للغناء، وفي ضوء القمر خصوصًا.

قاطعه كامل:

ـ أحسنت، أحسنت. نعم، في ضوء القمر، وفي ثوب أبيض، ولها صدر فتاة صينيّة، وخصرها خيزران، وأمامها مشعل، ومجمرة بخّور.. ولا نحتاج، يا باكير، إلى شيخ أو شهود. مراسم الغابة تختلف، ستعزف الرِّيح، وترقص الأشجار، وتغرّد الطيور.. وغدًا، غدًا من كلّ بدّ، أنزل المدينة لشراء الأرض، والحصول على رخصة السّلاح، والتعاقد مع مهندس لإقامة البناء، واستئجار العمّال، وجلب البذور..

ـ وسأغنّي أنا وأرقص..

ـ لك أن تغنّي وترقص.. لك أن تفعل كلّ ما يليق بجنّيَّة الغابة في يوم عرسها.

«أنا لن أرقص، والرِّيح لن تعزف، وأنت لن تتزوّج، ولن تنزل إلى المدينة أو تشتري الأرض، غدًا يوم للحزن

وليس للفرح، وسيطول الحزن عندما تنكشف الحقيقة!»

أنزل باكير طاقيّته إلى أمام. نزع الجفت، علّقه على جذع صنوبرة، سوّى الأرض، رشّها بالماء، جمع باقة كبيرة من أزهار الغابة، صنع تاجًا منها للعروسين، أضاء اللّوكس، مدّ البساط، رتّب الأكل، سكب الشراب.. سأل كامل البهاء:

ـ نبدأ يا معلّمي أم ننتظر؟

قال كامل:

ـ العرس يبدأ عندما تأتي العروس، لا قبل ولا بعد.

ـ في أيّ وقت تقريبًا؟

ـ هذا ما لم نتّفق عليه.

ـ خطأ.. الاتّفاق على الوقت مريح للعروسين.

ـ علامَ العجلة؟ قلت إنّها ستأتي، يعني أنّها ستأتي.. لننتظر!

انتظرا ساعة، وساعة، وساعة.. تقدّم اللّيل، انتصف، بانت خيوط الفجر، احمرّ الأفق عند مطلع الشمس، نام باكير، انطفأ اللّوكس، سادت السكينة.. دخل كامل الكوخ وخرج، خرج ودخل. ذهب وجاء، جاء وذهب. دار حول الكوخ، حدّق في الغبش، تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود. شحب لون كامل من السهر والجوع

والتحديق. شمّ ذئب رائحة الأرنب، هجم يريد التهامه، أطلق كامل رصاص مسدّسه عليه. أفاق باكير مذعورًا، سأل، عرف، أيقن، انتظر، جهجه الصبح، تبلّج النّهار، أشرقت الشمس. التزم الرّجلان الصمت، كتم أحدهما ضحكة، أمسك الآخر دمعة، تبخّر الأمل، ضاع الأمل، لم تَبِنْ جنِّيَّة الغابة.

باخ كلّ شيء، نام كامل البهاء تعبًا مقهورًا، شوى باكير الأرنب، أكله مع الشراب، علّق جفته في كتفه، اتّجه إلى الغابات المجاورة للصيد. استيقظ كامل مصدوعًا، شرب كأسًا من الماء، لم يذهب إلى النبع للاستحمام، جرّ نفسه إلى الرابية، حدّق في السماء، كانت صافية إلاَّ من رقائق سحب بيض. عند الطرف المائل إلى البحر، لم يكن على صفحة السماء رسم، أو تشكيلة سحب تشبه امرأة، تلفّت في الجهات الأربع، حدّق في كلّ ما حوله، عبثًا انتظر، تنهّد متحسِّرًا، غزل من الوهم أملاً جديدًا، قال بغير صوت: «ربّما في النّهار، في اللّيل، في وقت غير محسوب، من جهة غير متوقّعة.. ربّما تكون مشغولة، مريضة، اعترضها عائق، أخّرها طارئ، أنا لا أعلم، لكنّني أعلم، أعلم أنّها ستأتي، وستكون لي، لي وحدي، وستنضو عنها ثيابها، قضيب الزنبق هذه، ستبدو عارية، عارية حتّى دون ورقة توت، مورّدة كتفّاحة، ناضجة مثلها، نضرة، ريّانة بعد نوم، مشوقة كامرأة شبقة، مبرعمة الصدر

كصينيّة، مبتسمة كصورة، غامزة كنجمة، تفتح لي ذراعيها، تدعني آخذها بين ذراعيّ، أقبّلها، أزرع جسدها العاري بالقبل، وبعد أن تتهيّأ، تغتلم، تهمس: خذني! خذني! افترعني، هيّا افترعني. ماذا تنتظر لتفترعني؟ وسأفترعها، سأجعل، جنّيّة الغابة هذه، تتذوّق رجل الغابة الذي هو أنا، تتذوّقه كلّه، بلطف أوّلاً، ثمّ بعنف، بعنف أكبر، عنف مجنون، نذهب معه إلى النهاية المجنونة!»

عاد كامل البهاء إلى كوخه فرحًا، منتعشًا، حالمًا، عاد متوثّبًا، كأنّما رآها ثانية، قال لباكير:

ـ اللّيلة!

أشفق عليه باكير، جاراه في حلمه، قال له:

ـ نعم! اللّيلة، من المؤكّد اللّيلة.. نم قليلاً، استرخِ حتّى يؤاتي النوم، وعندما تستيقظ أكون أنا قد هيّأت هذه البطّة البرّيّة التي اصطدتها.

ـ وإذا جاءت وأنا نائم؟

ـ سأوقظك.

ـ تظنّها تأتي نهارًا؟

ـ قد تأتي نهارًا.

ـ أشكّ في أن تأتي نهارًا.

ـ شكّك في موضعه.

فكّر كامل البهاء وقال:

ـ لماذا شكّي في موضعه؟

ـ لأنّه في موضعه!

ـ وإذا لم يكن في موضعه؟

ـ لا يكون في موضعه!

صاح به:

ـ أنت تلعب بي يا ابن العاهرة؟

ـ معاذ الله.

ـ تقول ما أقوله!

ـ ما تقوله صحيح دائمًا.

ـ إذن أنت تؤمن، الآن، إنّني رأيت جنّيّة الغابة؟

ـ كلّ الإيمان.

ـ وأنّها ستأتي إليّ؟

ـ إنّها ستأتي إليك.

ـ في النّهار؟

ـ لا! في اللّيل.. جنّيّة الغابة لا تأتي إلاّ في اللّيل.

ـ أنت، يا باكير، على حقّ.. جنّيّة القمر امرأة، لكنّها امرأة جنّيّة.. هل حدث لك أن ركبت جنّيّة؟

ـ عيب يا هو..

ـ لا عيب في الحبّ.

ـ لا عيب في الحلال.

ـ الحبّ حلال يا باكير.

ـ صدقت يا معلّمي.. لذلك استرح، أرجوك أن تستريح، أن توفّر قواك إلى اللّيل. ماذا تفعل إذا جاءتك في اللّيل وكنت تعبًا؟

فكّر كامل البهاء وقال:

ـ معنى هذا أنّك متأكّد أنّها ستأتي في اللّيل؟

ـ وأقسم على ذلك.

ـ لا! لا تقسم.. صدّقتك بغير قسم!

ـ ٢ ـ

نام كامل البهاء نومًا عميقًا، نتف باكير البطّة البرّيّة، شواها، حضّر الطعام والشراب، جلس في فيء الغابة، ضحك في سرِّه من لوثة معلّمه.. قرّر أن يمدّ له في حبل الأمل، أن يقنعه كلّ يوم أنَّ جنّيّة الغابة ستأتي إليه في اللّيل، أن يستغلّ كرمه في شيء لا خسارة فيه، عارفًا عن يقين أنَّ جنّيّة الغابة هذه خرافة، وهم من بعض أوهام هذه الحياة الفانية، يتعلّل به كامل تعويضًا عن نقص، عن رفض، عن إضاعة امرأة ما، لسبب من الأسباب، يحاول نسيانها بالهرب إلى أمام، بنسج مشروع خياليّ، عن شراء أرض وإقامة مزرعة، يكون هو سيّدها، تكون جنّيّة الغابة سيّدتها.. «وأنا، أسرّ باكير، المزارع الوحيد فيها، إلى أن تنكشف الحقيقة، يصطدم كامل بالواقع، يتبخّر الوهم، يؤمن أنّ أسطورة هذه الجنّيّة، التي ربّما سمع بها من أحدهم، أو اخترعها بنفسه، ليست إلاّ أسطورة جميلة، آمل ألاّ تنتهي أبدًا، حتّى أبقى معه، أعيش وإيّاه طرافة لوثة

محبّبة، غريبة، مسلّية لغرابتها. كلّما كاد يفيق من عبثيّتها، أزيّن له هذه العبثيّة، أؤكّد، حتّى بالقسم الكاذب، أنّ هذه الجنِّيَّة ستأتي إليه، اللّيلة، أو بعدها، أو بعدها، إلى أن يملّ، أو تنفد نقوده، أو ييأس ويرحل.. ومن يدري، فقد أرحل معه، حين يصبح محتاجًا إليّ، حاجته إلى من يقنعه، يعمّق قناعته، بأنَّ أوهامه هي حقائق!»

بعد أن شرب باكير، أكل، سلطن، استلقى على عشب الغابة، وضع رجلاً على رجل، غنّى: «يوكساك ضاغلر سرين أولور» الجبال العالية تكون باردة، منعشة، ثمّ نام هانئًا، خليّ البال، مستمتعًا بالمرأة في قريته، بالعيش الرغيد مع صاحبه، مفكّرًا بحيلة، يتّفق لأجلها مع راعية من معارفه، تمثّل لمعلّمه دور جنِّيَّة الغابة، شرط أن يكون صدرها مكوّرًا، مبرعمًا، صغيرًا، كصدر تلك الفتاة الصينيّة التي يتحدّث عنها هذا المعلم مفتونًا!

عندما أفاقا عصرًا، كان كامل البهاء قد استردّ بعض عافيته، بعض نشاطه، بعض شهيّته إلى الطعام والشراب أيضًا. أعدّ له باكير بسرعة وجبة من المعلّبات، فتح زجاجة نبيذ، اعتذر له عن التهامه البطّة البرِّيَّة، كيلا تفسد إذا لم تشوَ وتؤكل. استراح كامل إلى الاعتذار، انطلت عليه الكذبة، وجد في صراحة باكير أمانة طيّبة. ازدادت ثقته به، صدّق، بفرح طفوليّ، الكذبة الأخرى السعيدة المسعدة، عندما قال باكير:

ـ البشرى يا معلّمي، يا أستاذي، فقد رأيتُ، وأنت نائم، جنّيّة الغابة على التلّة المقابلة، تنادي باسمك ثلاث مرّات، وتتوارى كلمح البصر.

ـ رأيتها بعينيك هاتين؟

ـ وسمعتها بأذني هاتين!

ـ قل لي، إذن، بتفصيل، كيف رأيتها؟

أشعل باكير سيكارة، وقال:

ـ لا تزعل منّي يا أستاذي، أنا عاجز عن وصفها تمامًا.

ـ صفها تقريبًا.

قال باكير:

ـ أترى دخان هذه السيكارة؟ أنظر إليه جيّدًا، إنّه أبيض، أليس أبيض؟

ـ ليس تمامًا، إنّه رماديّ.

ـ فارق اللّون، قليلاً، لا يهمّ.. في البدء رأيت خيطًا من وهج ذهبيّ يخطف البصر.

توقّف باكير عن الكلام، توقّف كامل عن الأكل.. كان ينتظر بشوق سماع بقيّة القصّة. تمهّل باكير في القصّ، ذلك أشدّ تشويقًا، كان ذكيًّا، قاصًّا بالفطرة، طمّاعًا يحبّ المال، يحبّ الخمرة، النساء، الطيّبات. خيّل إليه، في

وهم هو الآخر، أنّ كامل البهاء معتوه، فقرّر اعتصاره، امتصاص دمه إن أمكن، دون أن يدري ما هي قصّته، أو يعرف ما جاء به إلى هذه الغابة. ولأنّ الوهم، حين يتمكّن من صاحبه، يغدو حقيقة، أو مماثلاً لها تقريبًا، فقد انقلب ما هو خياليّ إلى واقع. كان كامل البهاء بحاجة إليه. لقد اخترع حكاية جنّيّة الغابة، باكير فهم ذلك. رغب، بغية الابتزاز، في ترسيخ هذا المخترع، قلْبِه، شيئًا فشيئًا، إلى واقع معاش لا شكّ فيه!

سأل كامل متلهّفًا:

ـ وبعد يا باكير، أنت، كما تقول، رأيت خيطًا من وهج ذهبيّ، ثمّ ماذا؟

قال باكير:

ـ الكلمات التي لديّ، لا تكفي لوصف تحوّل ذلك الوهج.. إنّني خائف، أصارحك أنّني خائف.

نفد صبر كامل فصاح به:

ـ خائف من ماذا يا ابن الفاعلة!؟ منها؟ منّي؟

قال باكير متمسكنًا:

ـ من الله يا معلّمي! إنّني إنسان، والإنسان عرضة للخطيئة دائمًا.

ـ هل ارتكبت معصية؟

ـ لا! أبدًا.. لكنّني، ولا أخفي عليك، خائف من ارتكابها.

ـ لا أفهم! كن واضحًا كي أفهم.

ـ إذا فهمت عاقبتني.

ـ أعدك بالعفو عنك، حتّى لو أخطأت خطيئة لا تقبل العفو.

ـ هذا وعد شرف؟

ـ وعد شرف!

ـ كلمة رجل لرجل؟

ـ كلمة رجل لا يرجع في كلامه قطّ.. أنت أكمل فقط.

ـ الخوف، يا أستاذي، أن أعشق جنّيّة القمر هذه بدوري.

ـ وماذا في ذلك؟ اعشقها ولن أغار منك.. هذا وعد أيضًا.

ـ المسألة ليست هنا!

ـ أين هي إذن؟

ـ في الموت!

ـ تخاف أن تموت؟

ـ يا ليت، ليتني كنت فداءك.. أنت معلّمي والمحسن إليّ.. إنّني أخاف عليك.

ـ منها؟

ـ من نفسي!

صاح به:

ـ ولماذا من نفسك يا ابن العائبة!؟ قلت لك إنّني لا أغار، فإذا فضّلتْك الجنّيّة عليّ، تنازلت لك عنها بطيبة خاطر، ورحلت عن هذه الغابة، إلى غير عودة.

ناح باكير:

ـ لا! لا تهدّدني بالرّحيل، لا أريد سماع هذه الكلمة.. إذا رحلت أنت تيتّمت أنا.

ـ سأعطيك، عندئذ، كلّ ما يتبقّى معي.. قل لي، فقط، ممّ أنت خائف؟

ـ أن أقتلك!

أمسك كامل باكير من ياقة قميصه وزعق:

ـ تقتلني!؟ تقتلني يا كافرًا بالنعمة، ومن أجل ماذا؟ من أجل امرأة؟

ـ امرأة؟ ماذا تقول يا معلّمي؟ جنّيّة الغابة امرأة؟

ـ ما هي إذن؟

ـ سيّدة كلّ النّساء، في الأرض كما في غيرها، وحتّى في الجنّة. . آه! ماذا أقول؟ امرأة. . لو رأيتها فقط.

ـ رأيتها يا باكير.

ـ أنت، وسامحني أرجوك، رأيت خيالها.

ـ وأنت رأيتها جسدًا وقوامًا؟

ـ ووجهًا أيضًا. . في البدء، كما سبق وقلت، رأيت على التلّة المجاورة خيطًا من وهج ذهبيّ يخطف البصر، دهشت ممّا رأيت، نهضت، اقتربت، تحوّل الخيط الذهبيّ إلى دخان فضّيّ، انتصب الدخان عمودًا، تشكّل العمود هيئة بشريّة، اقتربت أكثر، نظرت، عشيت عيناي، تحوّلت الهيئة البشريّة إلى قوام امرأة، حاولت التحديق فيها عبثًا، لفح وهج جمالها وجهي، ارتفع القوام، صار في الفضاء، سمعت صوتًا ينادي: كامل! كامل! كامل! هذا كلّ شيء، أنت حرّ في أن تصدّق أو لا تصدّق.

قال كامل:

ـ أرغب في أن أصدّق يا باكير، أرغب، أنا موعود بها، وها هي تعرفني، تناديني باسمي، فماذا بقي؟

قال باكير:

ـ أن تأتي إليك لتلمسها وتتأكّد. . هذا سيصير اللّيلة. وعليّ، اللّيلة، أن أتركك معها، حتّى لا أراها قادمة إليك

فأشتهيها، نعم! أشتهيها. أنافسك عليها، أقتلك لأجلها. ومن باب الاحتياط.. انتبه! قلت من باب الاحتياط، خذ هذا الجفت وضعه في كوخك، في هذه الحال أبقى بقربك، أطمئن إلى أنّني لن أقتلك.

قال ذلك باكير وناوله الجفت، أصرّ عليه أن يأخذه، أخذه كامل. قال باكير:

ـ أقتل نفسي، طبعًا، ولا أقتلك، غير أنّ الاحتراز واجب.. إذا صرت معها في الكوخ، ورأيتني أقترب منها، أطلق عليّ النار، اقتلني من فورك. تخلّص، يا معلّمي، من كلب مثلي!

ـ أستغفر الله، أنت، يا باكير، لا ينقصك الذكاء، وأنت وفيّ. وفي اللّيل، حين تأتي جنّيّة الغابة، سأضع ستارة على باب الكوخ، كيلا ترى شيئًا، أمّا السمع فأنصحك بعدم الاقتراب، لكن لا تبتعد كثيرًا، فقد أحتاج إليك لأمر ما.

ـ اتفقنا يا معلّمي، والآن اسمح لي أن أذهب لاصطياد بعض السمك، فقد تجوعان، أنت وهي، بعد منتصف اللّيل.

ـ هذا ما تراه؟ لا بأس، اذهب، ولا تتأخّر.

ـ سأتأخّر قليلاً، وعليك أن تستعدّ أثناء غيابي، فقد تعلم به جنّيّة الغابة، وتغتنم الفرصة للمجيء إليك.

نصيحتي، ككلمة أخيرة، ألاَّ تكون عنيفًا معها.

ــ من هذه الناحية اطمئنّ، أنا مشهور باللّطف مع المرأة.. مع السّلامة.

افترقا: ذهب باكير إلى الصّيد، انصرف كامل البهاء إلى حلاقة ذقنه، معتزمًا الاستحمام بعد الحلاقة، بماء النبع القريب.. صدّق كلّ ما قاله خادمه. راح ينظر إلى الشمس وهي تميل عن سمتها نحو الأفق، مفتونًا بالجوّ الشاعريّ للطبيعة المحيطة به، مبتدعًا صورًا لا يعوزها الخيال الجنسيّ، عن لحظة اللّقاء وما بعده، عن تمتّعه بمفاتن «سيّدة النّساء»، وصدرها الشبيه بصدر فتاة صينيّة، عن طاقته على إرضائها، هي التي ملأت كلّ تلافيف رأسه، إثر إخراجه المرأة منها، وتصميمه على القطع النهائيّ معها.

باكير الذي أعطاه معلّمه مبلغًا من المال، جرّاء وفائه، كان يمشي للصيد في البحر ويفكّر: كم ستدوم هذه اللّعبة؟ «عليّ، قال في نفسه، أن أحبك خيوطها جيِّدًا، ألاَّ أدع هذا المخدوع يفيق من خدعته، أن أخترع له كلّ يوم حكاية عن جنِّيَّة الغابة، أن أتزوّد في وصف جمالها، جمالها غير الأرضيّ، غير البشريّ، غير المعروف والمألوف، الذي لم يحظ بمثله آدميّ قبله، ولن يحظى به آدميّ بعده، أن أبقيه في دائرة الوهم، طالما كان مستعدًّا للإنوهام».

صلاة، صلاة، صلاة، الغابة تصلّي، أشجار الصنوبر،

في صفوفها التي هندستها الطبيعة، تصلّي، من الأدغال الخضراء، تتعالى ابتهالات، جوقة ولا معبد، ربّما كان هناك، في اللاّمرئيّ، معبد، وناقوس، وراهبات، ربّما كان سجود لله، من كائنات أتعبها عناء الفكر، فلاذت، عند الغروب، بالراحة من عناء الفكر. . وعليه هو أيضًا، كامل البهاء، أن يركع، أن يسجد لله ويصلّي، أن يشكره على نعمه، على إرساله جنّيّة الغابة إليه. وكي يكون أقرب إلى السماء، يتحمّدها على آلائها، صعد كامل إلى الرابية العالية، وقف فوقها، في وسطها، سرّح بصره في ما حوله، أخذته رهبة المساء المقبل في موكب الغروب، خيّل إليه، للحظات، أنّه أمسى خفيفًا، سابحًا، لو أراد، في الفضاء، نافضًا عنه ما علق به من تراب وغبار، مثله في بياض الإحرام، وهو يؤدّي العمرة في الديار المقدّسة.

لا يدري كامل كم دام مكوثه على الرابية، كم استغرق انخطافه في السحب، وعندما انتبه إلى نفسه، كانت الشمس في قرصها الأرجوانيّ قد ابتلعها حوت المغيب، والنار يتعالى لهيبها، دخانها، في باحة الكوخ، والغبش الذي لفّ الكون من حوله، قد أحال الأشجار إلى أشباح، والأدغال إلى أجمات، فانحدر سائرًا بينها، مشوقًا كأنّه يمشي إلى موعد مع حبيب، معديًا بعذوبة الدنيا من حوله، راغبًا، لو كان ذلك جائزًا، أن يقبّل باكير الذي أشعل النّار، استخلص جذواتها، شرع بشيّ السمك الذي

اصطاده، والذي تفغّم الجوّ رائحته الزكيّة، إعدادًا لوجبة العشاء الشهيّة، الوجبة التي احتار في أمرها كامل، أيأكلها الآن، قبل مجيء جنّيّة الغابة، أم يؤجّل ذلك حتّى يتناولها مع جنّيّته.

باكير حسم الأمر، قال له:

ـ كل يا معلّمي من هذا السّمك اللّقّص الطازج، الذي اصطدته لأجلك، السّمك له فوائد عديدة، منها قوّة الفحولة في الرّجل.

أجاب كامل:

ـ أعرف هذه الخاصِّيَّة في السمك، وأنا أفضّله مشويًّا، مثوّمًا. لكن ألا ترى أنّ من الأنسب أن أنتظر جنّيّة الغابة لآكل معها؟

ابتسم باكير مشفقًا، قال:

ـ كم أنت طيّب يا معلّمي، جنّيّة الغابة تأتيك جائعة؟ وتأكل السمك مثلنا؟ إنّها، كما أرجّح، تشرب فقط، وشرابها شراب الآلهة!

سأل كامل:

ـ وما هو شراب الآلهة؟

ـ النبيذ الأبيض، ولدينا منه زجاجة، لحسن الحظّ.. لكن ذلك يكون بعد الجولة الأولى.

ـ نحن البشر نشرب قبل أن نشرع بالجولة الأولى.

ـ هذا لأنّنا بشر، الرّجل منّا يكفّ بعد الجولة الأولى.. أمّا جنّيَّة الغابة، في شبقها الجنّيّ، فإنّها لا تكتفي بجولة أو اثنتين.. هكذا يقال عندنا في الضيعة.

ـ وماذا أفعل إذا حلّت من الجولة الأولى؟ أنا لم أفكّر بهذه المشكلة.

ـ وما حاجتك إلى التفكير وأنا معك؟ دواؤك عندي.. سأعطيك، بعد العشاء، كوبًا من عصير مستحضر لهذه الغاية، مأخوذ من خلطة من الأعشاب البرّيَّة، له مفعول السّحر، إلاَّ أنَّ مفعوله لا يبدأ إلاَّ بعد أن تتعرّى أمامك جنّيَّة الغابة.

ـ وإذا رفضت التعرّي؟

ـ ترفض؟ وماذا تفعل أنت؟

ـ وهل أستخدم القوّة معها؟

ـ ليس القوّة بل الإغراء.. ولا تسألني، كفتى مراهق، عديم التجربة، كيف يكون الإغراء!؟ أنت رجل، ولك تجاربك مع النّساء، وتعرف أكثر منّي طرق الإغراء.. إنّما الإغراء مع الجنّيَّة، غير الإغراء مع المرأة العاديّة.. الإغراء مع المرأة العاديّة يكون...

قاطعه كامل:

ـ كفى يا باكير، فهمت، ما تقوله صحيح. . يلجأ إليه كلّ رجل، ولكن هل الأمر نفسه مع جنِّيَّة الغابة؟

صاح باكير:

ـ إيّاك! إيّاك، وإلاًّ أفسدت كلّ شيء. . لنأكل الآن من هذا السّمك اللذيذ، ومع الأكل والشرب أفكّر لك بالطريقة الملائمة. . الطريقة الأفضل، من بين طرق كثيرة.

ـ وهل هناك طرق كثيرة؟

ـ لا تقل لي إنّك لا تعرفها!

ـ أعترف يا باكير، وبكلّ تواضع، أنّني لا أعرف إلاًّ طريقة واحدة.

ـ جديدة أم عتيقة؟

ـ طريقة الآباء والأجداد!

ـ ولو! أنت بسيط إلى هذا الحدّ؟

ـ نعم، أنا بسيط إلى هذا الحدّ. . أعرف أنّ الرّجل، عندما يختلي بالمرأة. . وأنت تعرف. .

ـ أنا لا أعرف شيئًا. . قصّ عليّ بالتفصيل ماذا يفعل الرّجل، في المدينة، عندما يختلي بالمرأة؟

ـ يظهر بأسه!

ـ هذه فهمناها!

ـ وماذا غيرها إذن؟

ـ وهل أنت، وسامحني على وقاحتي، تلميذ في المدرسة الابتدائية التي أعلِّم فيها؟

ـ هبني كذلك! علّمني. .

ـ العلم، يا أستاذي، يكون في الصغر، والمثل يقول. .

ـ العلم في الصغر كالنقش في الحجر! مع ذلك علّمني على كبر.

ـ التجربة أكبر معلّم، ستتعلّم اللّيلة من جنِّيَّة الغابة، أعطها حتّى ترضى، دون ذلك قد لا تعود، في اللّيلة القادمة إليك، إلاَّ أنّ العطاء يحتاج إلى قوّة، وأين هي هذه القوّة؟ موجودة عندي، في المستحضر المأخوذ من الأعشاب، كوب واحد منه، وبعد ذلك إلى الصباح، إلاَّ أنّ العصير، وتحضيره من الأعشاب النادرة صعب، غالي الثمن.

قال كامل:

ـ هذا لا يهمّ يا باكير، وهل تراني بخيلاً يا ولد!؟ إليك بهذا المبلغ على الحساب، زدني من هذا الشّراب الساحر أزدك من المال.

ـ ما دفعته على الحساب يكفي. . محال أن أغشّك، أنت وليّ نعمتي، أو أربح عليك. . خذ كوب العصير هذا،

اشربه وأنت تفكّر بجنّيّة الغابة، فكّر بها عارية، وإلاّ بطل تأثيره، أو نقص مفعوله القويّ، المثل يقول: «اِسأل المجرّب ولا تسأل الحكيم».. الذين جرّبوه في الضيعة أوصوني بذلك.

ــ وهل جرّبته أنت؟

ــ لا! لا وبصدق.. من أين لي، أنا الفقير، ثمن عصير القوّة هذا؟.. والآن، بحسب رأيي، تكلّمنا على هذه المسألة ما يكفي.. لنأكل هذا السمك اللّذيذ كلّه، كلّه دون خبز. هو وحده يكفي لجولة على الأقلّ، كُلْ وادخل كوخك.. إيّاك أن تنام، افتح عينيك، ابق يقظًا مهما يطل الانتظار.. لا تخف! دوري أن أحرسك.. سأكون قريبًا بعيدًا.. وفي الصباح تحكي لي، بتفصيل، ما جرى معك.

أخذ كامل كوب العصير، دخل الكوخ فرحًا مطمئنًا، أجهد خياله في تصوّر جنّيّة الغابة عارية، ركّز انتباهه على صدرها، داعب في تصوّره نهديها.. رفع كوب العصير إلى شفتيه بمهابة، كان مرًّا، كرعه كلّه رغم مرارته، مهّد مضجعه، أصلح شأنه، استعدّ.. حرص أن يكون استعداده كاملاً، وراح، والغبطة تشيل به، ينتظر جنّيّة الغابة.. بينما باكير، المستلقي على بساط تحت صنوبرة هرمة، يضحك في سرّه!

رجلان في غابة: أحدهما نام ملء جفونه، ثانيهما سهر

حتّى تقرّحت جفونه. باكير نام وهو يكاد يضحك، كامل سهر وهو يكاد يبكي. وفي الصباح التقيا.. كان كامل منفوش الشّعر، أحمر العينين، مصدوع الرّأس، نادب البخت، موجع الأطراف، متصلّب الظهر، يكاد ينهار من التعب، وفوق ذلك كان مصابًا بإسهال شديد، يترافق مع مغص، نتيجة العصير المقوّي، حتّى أنّه يئس، وهذا ما لاحظه باكير وخافه، من جنّيّة الغابة ومجيئها المنتظر.

قال لباكير:

ـ اللّعنة على كلّ شيء.. حالتي خطرة يا ولد، تسمّمت من السمك، أو من العصير المقوّي!

قال باكير بجزع خبيثٍ:

ـ بل من السّمك، كان نيئًا قليلاً، أنا أفضّله هكذا، معتاد عليه.. أمّا أنت فغير معتاد، الحقّ عليّ، دعني أقبّل يديك، اغفر لي خطيئتي، إذا لم تشف بسرعة قتلت نفسي.. تماسك قليلاً كيلا أقتل نفسي يا معلّمي!

ـ وبماذا يفيدني قتلك نفسك يا معلّمي!؟ هل هذا وقت علاك كهذا؟ بدل أن تقتل نفسك ساعدني على إنقاذ نفسي. ملعون أبوك يا كلب، أنت السبب في كلّ الذي جرى لي. أركض، جهّز لي شيئًا ساخنًا يوقف المغص، يوقف الإسهال، أمعائي تتقطّع يا «بَزَوَنْك!».

انجرد باكير، أمسك بيد كامل ليقبّلها، أمسك بها بقوّة،

رافضًا أن يتركها.. قرقر بطن كامل، اشتدّ المغص، أحسّ بحاجته إلى الرّاحة من الإسهال، أحسّ أنّه يوشك أن يطرح الإسهال، صاح بباكير:

ــ اترك يدي يا ولد، اترك يدي بسرعة، بسرعة وإلاَّ..

ــ لن أتركها، لن أتركها قبل أن أقبّلها، أرجوك، دعني أقبّلها.. دعني..

ــ آه! آه! قتلتني قتلك الله.. قتـ.. لـ.. تـ.. ـني.. فعـ.. لـ.. تـ.. ـها..

ومن دون إرادة، دون قدرة على الخلاص، دون وقت لفكّ أزرار بنطاله، دون ثوان لإنزال بنطاله، فعلها كامل في ثيابه.. فعلها دفعة وراء دفعة وراء دفعة، وباكير لا يزال متشبّثًا بيده، إلى أن غلبه الضحك.. قهقه، قهقه، ووجد معلّمه نفسه يضحك، يقهقه بدوره، فقد استراح.. ولكن أين..!؟ استراح في ثيابه:

ــ يا للفضيحة! يا للعيب، آه! آه.. أمّك، أختك يا باكير.. يا عكروت، يا عرص، يا بَزَوَنْك..

وباكير يضحك، مرغمًا يضحك، يحاول أن يقول شيئًا فيغلبه الضحك. إلى أن هدأ، إلى أن استطاع، بصعوبة، أن يقول:

ــ أنت مريض يا معلّمي، وليس على المريض حرج..

لا تستحِ.. لا تخجل.. كلّنا نفعلها.. كلّ النّاس يفعلونها.. لماذا تتعب نفسك بعد أن استرحت؟

ردّ كامل بصوتٍ واهٍ:

ـ وهذه راحة يا ابن الكلب.. يا دنفوز! (خزير).

ـ راحة ونصف يا استاذ.. أنا نفسي..

ـ لا تقل أستاذ.. إخرس.. ولا كلمة عن نفسك..

ـ أنا نفسي، وأقسم فعلتها في شروالي مرّة.. الماء الساخن على الفور، خلال دقائق.. ابق أنت واقفًا.

ـ وهل أستطيع أن أجلس!؟

ـ تستطيع إذا خلعت ثيابك.. ولكن لا تخلعها حتّى يسخن الماء.. حتّى أخلعها أنا عنك... حدث معي مرّة..

ـ إخرس، ولا كلمة.. أسرع بالماء، أيّ ماء.. هات الصابون من الكوخ.. اتركني وحدي.. قلت لك اتركني وحدي..

ـ سأتركك.. سأتركك.

وتركه!

ـ ٣ ـ

بعد أن اغتسل كامل البهاء، شعر براحة فعليّة، أشعل سيكارة، وجدها سائغة جدًّا، مجّها بعمق، نفث الدخان من شفتيه وفتحتي أنفه.. شرب الشّاي الثقيل الذي أعدّه باكير، تناول حبّتين مضادّتين للإسهال، تريّث حتّى بدأ مفعهولهما، نهض إلى كوخه، أخرج ثيابًا نظيفة، استحمّ، من جديد، في ماء النّبع المجاور.. عاد إلى الكوخ جديدًا، نام إلى العصر، أفاق ليجد مائدة مفروشة على بساط، فيها حساء الدّجاج الذي أعدّه باكير، مع الخبز المحمّص، وصحن من السفائن البيض، وبعض الفاكهة. تناول طعامه بمفرده. رفض باكير أن يجلس إلى المائدة معه، أقسم أن يظلّ واقفًا تأدُّبًا، أن يقوم بخدمته، أن يعدّ له القهوة بعد تناول الغداء، أن يمسك لسانه في فمه، دونما كلمة عن ليلة أمس، وما جرى صباح اليوم.

كان باكير قد اكتشف خطأه. أدرك، بعد فوات الأوان،

أنّه أكثر في العصير الذي حضّره من الأعشاب، من السلامانكا، العشبة التي تسبّبت في الإسهال الشديد. وكي يسرّي عن معلّمه، يعيده إلى مزاجه الطبيعيّ، دعاه بإصرار إلى رحلة صيد في الغابة، مع كلبه الخاصّ، الذي أحضره من الضيعة وكامل نائم. الكلب الأليف، المطيع، الذي أمره أن ينام عند قدمي معلّمه ففعل، أمره أن يرفع قائمتيه امتثالاً فلبّى، أن يلعق يديّ الأستاذ فلعق، عندئذ قال:

ـ هذا الكلب الأمين، الذي كلّفتني تربيته، تدريبه، إعداده للصيد، للحراسة، مبلغًا لا يستهان به، هو هديّة متواضعة، أقدّمها لك تكفيرًا عن ذنبي.

سأل كامل:

ـ وما هو ذنبك الذي تكفّر عنه؟

ـ نسياني تنبيهك إلى ستارة الكوخ الملعونة.. لماذا وضعت هذه الستارة؟

ـ ألم نتّفق على ذلك؟

ـ بلى! ولكن بعد مجيء جنّيّة الغابة، لا قبله، كما فعلت أنت.. الجنّيّة جاءت، رأيتها بعيني، رأت الستارة على باب الكوخ، ظنّت أنّ عندك امرأة، أخذتها الغيرة فانصرفت.

ـ وهل تغار الجنّيّة أيضًا؟

ـ أوليست أنثى!؟ الغيرة توأم الأنثى، سلني أنا..

ـ وهل تذهب الغيرة بها إلى حدّ القطيعة؟

ـ إلى حدّ الجنون.. الجنِّيَّة تحبّك يا أستاذ.. متى تفهم ذلك؟

ـ وماذا نفعل الآن؟

ـ لا شيء.. قم إلى الصّيد، خلاله نفكّر.. لا! لا تتعب نفسك بالتفكير، دعه لهذا الرّأس الذي تعامل مع الإنس والجنّ، ولم يخب مرّة واحدة.. هذا هو الجفت.. دع مسدّسك في خصرك.. لا أريده أنا، أقسم ثلاثًا أنّني لا ألمسه.. فمن يدري؟

ـ فهمت يا باكير، أيّها الولد الأمين.. أنت تخاف الوسواس الخنّاس..

أكمل باكير:

ـ الذي يوسوس في صدور النّاس.. نعم! هذه هي الحقيقة.. جنِّيَّة القمر فائقة الجمال، وأنا رجل.. انتبه يا معلّمي! أفعى! أفعى رهيبة، اقتلها أم أمسكها لك.

صاح كامل وهو ينزاح عن مكانه:

ـ اقتلها، إسحق رأسها، أجهز عليها.. بسرعة، بسرعة!

ـ ولماذا السّرعة؟ أين تفلت منّي؟ هه.. ضربة، ضربة

واحدة، على العمود الفقريّ. . إذا انكسرت، في الزواحف الفقريّة، فقرة واحدة، فقدت قدرتها على الحركة، انشلّت نهائيًّا، أتلعت رأسها فقط. وماذا في وسع الرّأس إذا انشلّ الجسد! مع ذلك سأسحقه. . ضربة واحدة تكفي. . إليك به مهروسًا، لكنّ المشكلة ليست هنا. . هذه الأفعى، لسوء الحظّ، أنثى، وسيأتي ذَكَرها باحثًا عنها. منتقمًا لها، إذن لا بدّ من الاحتياط. وهنا يأتي دور هذه القطّة التي أحضرتها معي أيضًا. . القطّ من فصيلة النمر، وله شراسته، والعداء بين القطّ والأفعى كالعداء بين الحماة والكنّة. . أزليّ أبديّ يا معلّمي. هذه القطّة، قطّتي المدرّبة، ستكفينا شرّ الأفعوان إذا جاء. . كن مطمئنًّا ولنذهب إلى الصيّد.

قال كامل بتواضع وامتنان:

ـ لا أدري، يا باكير، ماذا كان يحلّ بي، في هذه الغابة، لولاك!

ـ مع ذلك غدًا تتزوّج جنّيَّة الغابة وتنساني. . غير أنّ المهمّ ليس هذا، المهمّ هو الكلب والقطّة، سيألفانك ويتركاني، فمن يعوّضني عنهما؟

ـ أنا!

ـ لا!. . باكير، يا معلّمي، لا يقول كلمة ويلحسها. الكلب والقطّة هديّة منّي.

ـ وهذا المبلغ. . انتظر. . هذا المبلغ، هديّة منّي.

ـ أنت، بهذا الكرم، تخجلني يا معلّمي. . الأدهى أنّك ستحتقرني. . اسمح لي ألاّ أقبل هذا المبلغ.

ـ خُذْ ولا تكن تيسًا تركمانيًّا. . التركمان، يا باكير، طيّبون، نظيفون، يجيدون تحضير الطعام، يحسنون صنع الشنكليش. . لكنّهم، واسمح لي أن أكون صريحًا معك، عنيدون. . فلا تكن عنيدًا أنت معي.

ـ سآخذه حتّى لا أكون عنيدًا، أو حتّى لا تقول إنّني، أنا خادمك، أرفض أوامرك. . هيّا نذهب إلى الصيد وعلى بركة الله.

كان كامل البهاء صيّادًا كفؤًا، خفيف الوطء، حادّ البصر، يرصد ما أمامه، ما فوقه، بحسّ نابه، وكان الكلب «دوشان» المدرّب على الصّيد، قمينًا بأن يساعده في مُهمّته، إلاّ أنَّ فتنة الغابة لفتته بقوّة، أخذته أخذًا إلى جوّها العبق برائحة الصنوبر، وشميم الصمغ، وعطر الزهور البرِّيَّة، وزقزقة العصافير. . وكان مطمئنًّا لأنّ كلبين يحرسانه: دوشان من أمام وباكير من وراء، وقد أفلح، من الطلقة الأولى، برمي طائر الوروان الغابيّ. وحين استنفر الكلب قرب النبع حجلاً، رماه بدوره، وهذا ما بعث فيه حمية غير معهودة، استعاد معها بعض نشاطه، متمنّيًا لو يوفّق إلى صيد أحد الثعالب، سمّورًا ما، يباهي

بفروهما.. وفجأة ترامى إليه عواء ذئب، في مكان ما قريب من الغابة، وطارت أمامه دجاجة بِرِّيَّة، أطلق عليها دون أن يصيبها، بسبب انشغال باله بالذئب الذي تابع عواؤه، مقتربًا إليه أكثر فأكثر، الأمر الذي حفز الكلب دوشان إلى العراك، وعندئذ أعطى المسدّس إلى باكير، قائلاً له:

ـ اِحذر أن تصيب دوشان إذا ما وقع عراك بينه وبين الذئب.

ردّ باكير:

ـ وأنت اِحذر أن تصيب الذئب والكلب معًا..

ـ أنا لن أطلق النّار.. سأدعهما يتعاركان أمامي.

ـ وإذا كان هناك أكثر من ذئب!؟ أو إذا صادف وواجهنا قطيعًا من الذئاب!؟

ـ وهل يعقل هذا؟ أنا لم أسمع سوى عواء ذئب واحد.

ـ لا يغرّك هذا.. ما سمعته عواء ذئبة لا ذئب، وهي ليست جائعة. في الصّيف لا تجوع الذئاب، لا تهاجم الناس والبيوت.. تفعل هذا في الشتاء، حين يتساقط الثلج بكثافة، فلا تجد ما تأكله.

تحرّك دوشان، حفر العشب بقائمتيه، اتّجه نحو الدغل، نبح بصوت مقلوب، كما في اللّيالي المظلمة،

كان الآن في حالة توثّب، يعرف بطبيعته الذئب جيّدًا، إنّه من فصيلته، الكلب كان ذئبًا أيضًا، تدجّن، دجّنه الإنسان، عاد دوشان إلى أصله، عاد ذئبًا، شمّ رائحة الذئبة، أنثاه في الأصل، تسمّر كامل في مكانه، صوّب فوهة الجفت نحو الدّغل، لم يكن جبانًا، لم يكن شجاعًا. . كان صيّادًا عاديًّا، مغامرًا بغيره، بالكلب، بباكير، بالسّلاح الذي يحملان، راغبًا في أن يصطاد ذئبًا، راغبًا أكثر في أن تقع معركة بين الكلب والذئب، إرضاءً لفضولٍ تملّكه.

بخلافه كان باكير، الواثق من كلبه والخائف عليه، مترقّبًا، وما أن مرّ بعض الوقت، حتّى اضطرب الدغل، ثمّ اشتدّ اضطرابه، ولم تخرج الذئبة. خافت، كما يبدو، على شيء. . خوفها كان على جرائها. سمع باكير صوت الجراء، سمعها دوشان أيضًا، بدّل مكانه، اتّجه نحو منفرج الدغل، المخرج الوحيد أمام الذئبة. . أقعى وهو يرتجف، المعركة تقترب، لا بدّ للذئبة المحاصرة من الخروج، من الدفاع عن نفسها وجرويها، أطلقت عواء النجدة، نبح الكلب ردًّا على العواء، لم يبن أيّما ذئب، يئست الذئبة من نجدة تأتيها، يأسها دفعها إلى المغامرة، أخرجت رأسها أوّلاً، كان الكلب مقابلها تمامًا، رأت الجفت مصوّبًا نحوها، قدّرت، كما يبدو، أنّ القوّتين غير متكافئتين: قوّتها وقوّة مهاجميها. سحبت رأسها إلى حيث كان، محتميةً بالدغل. تحرّك الكلب مهاجمًا، اقترب،

اقترب أكثر، توقّف فجأة، هذا حدّه، الذئبة تستدرجه إلى الدغل، باكير صاح به، حذّره من الدخول، من الاستدراج، الموقف غدا دقيقًا: لا الهجوم ممكن، لا الانسحاب ممكن، اللّيل يقبل، حسنًا! ليقبل اللّيل، هذا في صالح الذئبة، أدرك ذلك باكير، راح يحرّض كلبه. تحرّض الكلب، نبح، قوي نباحه، ازداد، عنف، اشتدّ عنفًا. . وجدت الذئبة، بنزعة الشراسة فيها، ألاَّ مفرّ، قاتلة أو مقتولة. فضّلت أن تكون قاتلة، وثبت على الكلب، تحرّك بدفع ذاتيّ، خابت الوثبة، لاحت فرصته للهجوم، وثب من وراء، استدارت إليه. . التحما. المعركة الفعليّة بدأت، النيوب الحادّة برزت، الشراهة تبدّت في عيون أربع، العدوانيّة استشاطت، الوحشيّة تضرّت، سال الدم، سال من الجسدين، تدحرج الجسدان، تناوب الوحشان الدحرجة، الذئبة من فوق مرّة، الكلب من فوق أخرى، شرعا يلهثان، تعبا، اشتدّ لهاثهما، تراوحت الهجمات، ترجّحت الكفّة، دقائق، ثوانٍ. . رجحت كفّة الذئبة. الكلب بين الهزيمة أو الموت. ينهزم؟ يموت؟ تساوى الأمران، أزّ الرّصاص، أزّ متتابعًا، أفرغ باكير مسدّسه في جسد الحيوانين، قتل الحيوانين، غابت الشّمس، انتهت المعركة، أنهاها الإنسان، لا بقوّته بل بسلاحه!!!

كان باكير يألف الظلام، يرى فيه، ببصر مخترق، بصر ابن الغابة. كانت الغابة، بالنّسبة إليه، حديقة. وفي

حديقته، على ضوء ما تبقّى من النهار، حفر حفرة لكلبه الأثير، دفنه على نحو لائق. قال عنه، كأنّما يؤبّنه: «كان حيوانًا أليفًا، أمينًا، مقدامًا، مات ميتة مشرّفة». قبل ذلك دخل الدغل، التقط جروي الذئبة، ربط الأمّ بحبل، قال لكامل:

ـ لم تكن رحلة الصّيد هذه خاسرة على كلّ حال، أنا ظفرت بالجروين، وأنت بما تبقّى.

قال كامل:

ـ أنا ظفرت بما هو أثمن: صحّتي الجسديّة والنفسيّة.

ـ وفوق ذلك بفراء هذه الذئبة.. سيكون هديّة لائقة لجنّيّة الغابة.

ـ جنّيّة الغابة؟ إنّها حلم جميل لا أكثر!

ـ وإذا تحقّق الحلم الجميل يا أستاذي؟

ـ أشكّ في ذلك.

ـ خطأ! الشكّ خطأ! سرداب يقود إلى اليأس، وأعيذك أن تيأس، ولماذا تيأس؟ لأنّها لم تأت ليلة أمس؟

ـ ولن تأتي اللّيلة.

ـ هب أنّ ذلك حصل.. هب أنّها لم تأت اللّيلة أو التي بعدها وبعدها، تيأس من مجيئها؟ وبعد ماذا؟ بعد أن نادت عليك باسمك؟ قالت كامل ثلاث مرّات، سمعتها بأذنيّ

هاتين، أكذّب أذنيّ!؟ والنهدان الصينيّان اللّذان في صدرها! نم اللّيلة واحلم بهما . . فكّر بهما تحلمْ بهما . مَن فكّر بشيء جاءه في الحلم . . وما هو الحلم في معيار اللذّة؟

قال كامل:

ـ لذّة خلّبيّة!

ـ لكنّها لذّة من نوع ما . . اللّذائذ أنواع . أمّنا الطبيعة أرادت لنا أن نعرف هذه اللّذّة، فهل نجحدها؟ أن يأتي الحلم باللّذّة، يعني أنّك شابًّا لا تزال . . لماذا حلم اللّذّة هذا لا يتأتّى للشيوخ في العمر؟ بعضهم، يا معلّمي، يتمنّى لو يدفع ما تبقّى له من العمر مقابل حلم واحد، يأتي بلذّة واحدة! . . عجائز الضيعة، ومن الجنسين، حدّثوني بمثل هذا .

ـ هذا تفشير يا باكير، في باريس نفسها، لا يتحدّث حتّى العجائز حول الحلم واللّذّة بمثل هذه الصراحة .

هتف باكير:

ـ باريس!؟ الفرنسيّون!؟ أنت لا تعرف التركمان، ولا الضيعة التركمانيّة . . باريس؟ يا عيني! مرحبًا باريس! الضيعة التركمانيّة متقدّمة على باريس نفسها . في هذا المجال! سلني أنا أجبك . . مَنْ تظنّني؟ جاهلاً بباريس؟ غير عارف بالفرنسيّين؟ ألم يكونوا عندنا وذهبوا بغير رجعة!؟

ـ خلاصته يا باكير؟

ـ الخلاصة، وهذا ما أكتشفه مستغربًا، أنّك لا تثق بي.. فلماذا الكلام إذن؟ لماذا يتكلّم رجل الغابة مع رجل ينكر معرفته بالغابة؟ لا بأس! أنت وما تريد.. اذهب من الغد إذا شئت، اذهب ودعني.. أنا إنسان أحيا بالأمل، وفي الأمل، ولأجل الأمل.. رجل من ضيعتنا لم تحمل زوجته ثلاثين عامًا! لم يقطع الأمل، لم يطلّقها، لم يتزوّج سواها.. وبعد ذلك؟ حملت منه في الثالثة والثلاثين.. نعيمًا!

قال كامل:

ـ لا تفهمني خطأ يا ولد.. أنا، يا ابني، لا أعرف اليأس.. رأيت طائرة نفّاثة وما تترك وراءها من دخان أبيض؟ رأيتها؟ هذا جيّد، أملي، يا باكير، أطول من هذا الدخان الأبيض. إلاّ أنّك، ولوجه الشيطان، تقع في تناقض معيب دائمًا: توصيني بالسهر حتّى الصباح، وتريدني أن أحلم وألتذّ، كيف يصير هذا؟ لولا ثقتي التي لا تتزعزع فيك، لحسبتك تضحك عليّ!

ـ أضحك عليك؟ آكل خبزك وأضحك عليك؟ أليس هذا، وبكل المقاييس، طعنة في شرفي، أنا خادمك الأمين؟ مع ذلك سامحك الله، لن أزعل منك.. وهل أستطيع؟.. ها قد وصلنا.. استرح أنت، أَرمي عليك

اليمين أن تستريح، السيّد، ومن طبعي احترام الأسياد، يجلس، والخدم يشتغلون.. إنّهم، في عرف الأسياد، خلقوا لهذا، وهم به راضون.

ـ أستغفر الله يا باكير، نحن هنا، يا ابني، زميلان.. لا سيّد ولا مسود! لا تعد مرّة أخرى إلى هذه النغمة.. هل تدري ما فعلت بي رحلة الصّيد هذه؟ أحيتني! أنا حيّ الآن كما لم أكن من قبل في حياتي.. المعركة، وكلبك المسكين.

ـ دوشان! آه! لا تذكّرني به.. إنّني أبكي.. أبكي صديقي الصدوق.. يا للخسارة القاصمة للظهر! لولاه لأكلتني الذئبة رغم سلاحي، إنّني لست بالجبان، وهذا المسدّس.. خذه بالمناسبة، أرجوك.. لولا أنت بجانبي، تمدّني بالشجاعة، صدّقني ما تجرّأت على استعمال هذا المسدّس، لكن أيّ جناية ارتكبت؟ قتلت كلبي، صديقي، رفيق عمري بيدي، فيا للخسارة التي لا تعوّض.

ـ كفى! لا تبكِ.. كفّ عن البكاء.. سأعوّض بعض هذه الخسارة، بعضها لا كلّها.. خذ..

ـ آخذ ماذا ودوشان كان هديّتي لك؟

ـ وأنا قبلت الهديّة، قبلتها على العين والرّأس، وهذا المبلغ ليس ثمنًا للكب، بل للصداقة التي كانت بينكما.. خذ يا باكير.. لا تكن..

ـ سآخذ! سآخذ! ولكن دعني أقبّل يدك البيضاء بالإحسان..

ـ لا! لا تفعل.. كلّ شيء إلاَّ تقبيل اليد.. حادث الصباح...

صاح باكير:

ـ الذي لن يتكرّر، أبدًا لن يتكرّر، ولا تذكّرني به.. الخطأ خطأي، لا في تقبيل اليد السخيّة. فهذا واجبي مهما تكن عواقبه، إنّما الخطأ! يا ليتني متّ ولم أرتكبه.. الخطأ في اندساس حشيشة السلامانكا بين خلطة الحشائش السحريَّة.. والآن إلى العمل.. سأجمع الحطب وهو كثير، هذا أوّلاً، وبعد جمعه تأتي فرحتي بإشعاله.. عود من المرخ الصنوبريّ.. هوب.. اللّهب يرتفع إلى السّماء! هذه اللّيلة سأنير السماء، سأشعلها حتّى تراها جنّيَّة الغابة.. هذه زينة دخْلتها، وعلى من؟ على سيّدي الذي..

ـ كفى! كفى! يا باكير.. أنا مثلك أفرح بإشعال النار.. سأشعلها بنفسي، حتّى تراها بنفسها. النار فرْحة، النار بهجة، ما كنت أعرف سعادة الغابة حتّى تلمّظتها اليوم، بدقّة الكلمة.. اليوم عرفت ماذا تعني الغابة، وماذا يعني العيش في الغابة، بصرف النظر عن جنّيَّتها!

«بصرف النظر» هذه لم تعجب باكير. قال بغير صوت: «إذا صرف النظر عن جنّيَّة الغابة، انخرب بيتي، صرف

النظر عنّي أنا أيضًا، وعندئذ يطير من يدي، ليطر هو، إلى ألف جهنّم، لكن ماله، ما تبقّى معه من مال، أو ما يمكن أن يجلبه من مال، هذه ليست ثروته، إنّها ثروتي، مهما تكن قليلة، تبقى بالنّسبة إليّ كثيرة حين يدخل كوخه سأعدّ ما أخذته منه، هذا رجل كريم، لا لأنّ جنّيّة الغابة الموعودة ستأتي إليه، بل لأنّه كريم الطبع، كريم وشهوانيّ. صدر جنّيّة الغابة، الذي يشبه صدر فتاة صينيّة، فتنه.. فمن أين آتيه بصدر كهذا؟»

كان باكير قد أخذ منديل راعية في أطراف الغابة، ركبها وأخذه كتذكار، تشمّمه كما لو أنّه سروالها.. كان سروالها طويلاً، من شيت مزهّر بالأحمر والأبيض، ولم يكن، هو الذي عرف سراويل نساء المدن، يعجبه سروال قرويّة كهذه، عفّ عنه، اكتفى بإعطاء الراعية بعض النقود، وعدها بالزواج، ضحك عليها، إلاّ أنّه، حين غادرها، قال لها: «كوني تحت الطلب!»، حرنت الراعية، حردت، قالت لباكير: «تحت أيّ طلب يا ابن العاهرة؟ تحسبني مشاعة؟ أنا تركمانيّة مثلك، والتركمانيّة لا تبيع نفسها، لا تبادل كرامتها بالمال، أنا لك صحيح، لكنّ على شرط الزواج، فإذا لم تتزوّجني قتلتك، حطّ هذا في حسابك!»

منذ ذلك اليوم، أهمل باكير الراعية، احتفظ بمنديلها، هذا المساء تذكّره، وجده لقية، علّقه على طرف غصن يتدلّى فوق الكوخ، منذ رجوعه من الصيد، إلاّ أنّه لم

يكشف عنه، فلمّا سمع «بصرف النظر» عن جنّيّة الغابة، حبكت معه الحيلة، زوى ما بين عينيه وفكّر: «جنّيّة الغابة كانت هنا، وهذا منديلها!» قال لكامل وهو يجلب له مزيدًا من الحطب:

ـ أشعل أنت النار، ريثما أسلخ أنا جلد الذئبة وأملّحه، إنّه فرو ممتاز، سيكون هديّة ثمينة لأجمل سيّدة في المدينة.

جفل كامل، مجرّد ذكر المدينة كدّره، فكيف بسيّدة من المدينة! بالنّسبة لإنسان هارب من أيّة سيّدة، لمجرّد كونها امرأة، ولكونه هو، كامل البهاء، هاربًا من المرأة التي لحقت به إلى الغابة، ولم يتخلّص منها إلاّ بالانتقال إلى هنا.

قال لباكير:

ـ في المدينة لا توجد سيّدات، توجد.. المهمّ.. هذا الفرو، واحرص ألاّ تجرحه، سأهديه إلى جنّيّة الغابة عندما تجيء، وإن كنت على شكّ من مجيئها!

هتف باكير:

ـ شك!؟ أيّ شكّ هذا؟ جنّيّة الغابة حقيقة، وحبّها لك حقيقة أكبر، وقد جاءت وأنت تصطاد، فلمّا لم تجدك تركت لك منديلها.. أنظر إلى هناك، إلى ذاك الغصن فوق الكوخ، ماذا ترى؟

نظر كامل البهاء، رأى المنديل فهتف:

ـ لا أكاد أصدّق!

قال باكير:

ـ وماذا أكثر من هذا المنديل الحريريّ لكي تصدّق؟ الدنيا حظوظ، ليت حظّي مثل حظّك يا معلّمي!

زجره كامل:

ـ ماذا تقول يا ولد؟، أنت، يا باكير، بدأت تتطلّع إلى ما هو أعلى منك.. تريد منديلاً حريريًّا؟ ومن جنّيّة الغابة؟ هل جننت؟ تساوي نفسك بي؟ وأين تذهب التضحيات؟ تعرف كم ضحّيت، وبماذا ضحّيت، حتّى استحققت هذا المنديل؟

ـ نوّرني يا معلّمي، قل لي بماذا ضحّيت؟ وكم كان الثمن؟

ـ الذي ضحّيت به لا يقدّر بثمن، ولا يحكى عنه.. إنّه سرّ، سرّ حياتي، تطالبني بتقرير عن حياتي؟

قال باكير:

ـ أنا لا أطالب بشيء، وهل لمثلي أن يطالب مثلك بشيء.. أعتذر.. أرجوك اقبل اعتذاري.

ـ أقبله على شرط، ألاّ تعود تتطلّع إلى ما هو أعلى من أنفك.

ـ يعني أن أغضّ نظري.

ـ تمامًا! إيتني بمزيد من الحطب.. النار، في مثل هذا اللّيل، تزيد اللّيل عمقًا، تجعلك تحسّ أنّك محاط بهالة سوداء، كما لو كنت في أفريقيا مثلاً.. المتنبّي قال: «اللّيل والبيداء» أنا أقول: «اللّيل والغابة!» مَن يعرف الغابة في اللّيل؟ المغامر مثلي. وما قيمة العيش من دون مغامرة؟ الكنكنة تكون في الشتاء، في المطر والرِّيح والثلج، الشتاء له مغامرته أيضًا، لكنّها من نوع آخر، لها لذّتها الأخرى.. أن تخرج في الشتاء، لتصطاد، فكأنّك تخرج لتعطي نفسك إلى قدرك، ذلك في النهار، أمّا في اللّيل فإنّك تعطي نفسك إلى حمأة الظلمة، تدخل مغارة الظلمة، ترتجف من برد وخوف، ومن مواجهة الكواسر، لكنّك تأمن الأفاعي، تأمن الزواحف بكلّ أنواعها، وهذا جيّد. تعود من الغابة، إذا ما عدت منها، كالمنتصر عليها، تستحمّ بالماء الساخن.. وبعد ذلك إلى الفراش رأسًا..

ـ وتكون المرأة دافئة، ريّانة، في انتظارك.

نبر كامل:

ـ وما دخْل المرأة، هذه القحبة، في ما نحن فيه؟

ـ دخلها أنّها اللّذّة الأخرى، الكبرى، إنّها الصيد الآخر، الألذّ، الأشهى، يا معلّمي.. أسألك: هل من تجربة أسعد من تجربة أن تضع فخذك بين فخذي زوجتك

في البرد؟ هناك الجنّة صدّقني!

ـ هناك الجحيم!

ـ وهذا أفضل. . في البرد القارس، الزمهريريّ، يصبح الجحيم أفضل من الفردوس، وأنت أدرى. . لكن أيّ جحيم؟ هنا المسألة! أنا أتحدّث عن جحيم الفراش!

قال كامل بحسم:

ـ إنّني أدرى طبعًا، أدرى منك ومن أجدادك. . إلاَّ أنّ الكلام على المرأة والفراش والفخذ والدفء من صفات الرّجل السوقيّ المبتذل. .

ـ أعوذ بالله يا أستاذي!

ـ أستاذك حذرّك يا باكير، وهذا هو التحذير الأخير. كلمة أخرى عن المرأة ويكون الفراق بيننا!

أضاف كامل:

ـ في هذا اللّيل البهيّ، وأمام هذه النّار المقدّسة، يحلو الكلام على القداسة لا على النجاسة. . فهمت؟

ارتبك باكير:

ـ ليس كثيرًا يا أستاذي.

ـ أنت حمار إذن، هذا ما يقوله لك أستاذك. . إليّ بالحطب، الكثير من الحطب. هذا اللّيل الساجيّ، وهذه

السكينة المرينة، وعطر الصنوبر، والمنديل الحريريّ.. ألن نشرب شيئًا اللّيلة؟

ـ بلى! سنشرب، هذا طلب جيّد، ألف طلب مثل هذا الطلب، أفرز الجمرات الكبار جانبًا، ابدأ الشيّ، بغير عجلة، انتهى سلخ جلد الذئبة.. ما هذا، تبارك الله، ما هذا الفرو الفاخر؟ حين تجيء جنّيّة الغابة.. هل مسموح لي أن أتحدّث عن جنّيّة الغابة؟

ـ هذا وحده المسموح.

ـ لكن جنّيّة الغابة أنثى.

ـ أنا لست ضدّ الأنثى بالمطلق.

ـ ضدّ أيّ أنثى إذن؟

ـ سدّ بوزك!

ـ أمرك!

ـ عجّل بالطعام والشراب..

ـ وبعده بالعصير المقوّي!

اللّعنة عليك، يا باكير، وعلى عصيرك المقوّي!

ـ لماذا يا معلّمي؟

ـ وتسأل، بعد، يا عرص!؟

ـ ٤ ـ

لم تظهر جنّيّة الغابة اللّيلة، أو بعدها، أو بعدها، إلى اللّيلة العاشرة. أفلس كامل البهاء، هرب باكير، أخذ معه الجفت، القطّة، جلد الذئبة، لم يبقِ سوى على الكوخ والفراش. أدرك كامل أنّ الحلم بجنّيّة الغابة كان وهمًا، وهمًا من بعض أوهامه، وأنّ المرأة التي أخرجها من رأسه، كانت هي المرأة الحقيقيّة، وأنّ إخراجها كان عبثًا، وأنّه ضلّ ضلالاً كأنّه الضياع في غابة بكر بلا دليل، وأنّ عليه أن يعود إلى المدينة، إلى البيت، تائبًا، نادمًا، منكسرًا، وأن يغلق بابه دونه حتّى يموت!

«باطل الأباطيل باطل، الكلّ باطل، الكلّ قبض الرّيح»! كيف، يا كامل تقبض على الرّيح؟ كيف اخترعت، كتعويض عن المرأة، خيال المرأة؟ ولماذا هربت إلى غابة، بعد غابة، بعد غابة؟ وهل الهرب من المرأة إلاّ هرب من الحياة؟ وما الحياة بغير المرأة؟ وأيّ ناموس

للحياة أردت، أو تريد، أن تنقض؟ الذي قال اهدموا الهيكل وأنا أبنيه في ثلاثة أيّام، كان يقصد هيكل الناموس، لا هيكل الخشب والحجارة. والذي تحرّج التجربة، في إلقاء نفسه من فوق الهيكل، كان يُعلّم النّاس ألاَّ يلقوا بأنفسهم من فوق الهياكل.. ألاَّ يلقوا بها إلى التهلكة، فعاقبة التهلكة وخيمة.. وأنّ الذي قال لتلاميذه «من ضربكم على خدّكم الأيسر أديروا له خدّكم الأيمن» هو نفسه الذي طرد الصيارفة، بسوطه، من الهيكل، قائلاً: «هذا بيت أبي وأنتم جعلتموه مغارة لصوص!» وأنّه، هو أيضًا، من قال للذين كانوا يطاردون مريم المجدليّة، ليرموها بالحجارة: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر».. وأنت، يا كامل، رميت كلّ خاطئة، وكلّ من خيّل إليك أنّها خاطئة، بحجر جحودك، وهو الحجر الأثقل، الأوجع. فالجحود نكران، ومن ينكر غيره ينكر نفسه، ومن يسلّم قياده إلى الشيطان يقوده الشيطان إلى جهنّم! فلماذا أسلمت قيادك إلى باكير، هذا المخاتل، المضلّل، الذي سلبك لا مالك وحده، بل هناءتك أيضًا، ومرّغ روحك بوحل انتظار التي تأتي ولا تأتي!؟ من هي جنّيّة الغابة؟ من أيّ طينة عجنتها وخبزتها وتعبّدت لها؟ السراب، يا كامل، توق الظامئين إلى الماء، وجنّيّة الغابة توقك إلى المرأة، وهذه ليست بالسوء الذي تصوّرتها به.. وحتّى لو كانت سيّئة، فإنّ الرّجل، أنت وأنا وهو، مَنْ جعلها سيّئة، مَنْ جعلها مراوغة، من اضطرّها إلى الكذب

في غير ضرورة، كي تحمي نفسها، تدفع عن ضعفها، تواجه الحياة، وعنوانها القوّة، بقوّة الحيلة التي أُلجئت إليها!

الندم! يقظة العقل، صحوة الضمير، عيش الفعل ثانية، ليس هذا كلّه المطهّر الذي ترتجي، ليس الخلاص الذي تنشد، ولا قشّة النجاة من الغرق، أو السبيل الكفيل بغسلنا من خطايانا. إنّه اليقظة من الغفلة، المرتقى من المنحدر، الاعتراف بعد النكران، تصحيح ما اعوجّ، وصولاً إلى الصراط المستقيم، كالخطّ المستوي بين نقطتين. إنّه الندم، المرشد إلى الخطأ، وأنت نادم، وفي هذا رشد بعد غيّ، إنّما عليك أن تعرف، ويحسن بك أن تعرف، أنّ التوبة حتّى النصوح منها، لا تصحّ معها تلاوة فعل الندامة فقط، بل الاتّعاظ بما جرى، كي لا تقع في الخطأ، أو تكرّره، في الذي يجري.

لم يكن كامل البهاء خائفًا، كان وحيدًا. وهذا، في غربة الجسد والرّوح، أقسى من الخوف. من ذا الذي قال: «الوحدة عبادة»؟ قد تكون كذلك ليوم، لعشرة، لشهر، لعام، وبعد العام يأتي الملل، يسيطر، يفرش ظلّه كجنح غراب، تفقد اللّيالي، حتّى في الأصياف، بهجتها، تتعرّى النهارات من أنور لبوسها، لا يعود حرير الضوء في الأصباح شفيفًا، ناعم الملمس، لا تغدو الشمس في الأصيل شلاّلاً ذهبيًا بارقًا، والغروب تبهت أرجوانيّته،

تتبدّل الأشياء في النفس، تكتئب بكآبتها، تنسرح الكآبة على الكائنات، تبدو يناعة الخضرة إلى ذبول، نضارتها إلى اصفرار، تنوح تغاريد البلابل والكناري، ينشرخ همس الغابة، توحش السكينة، تجفو المدارك، تتلاشى تصوّراتها عن مهابة المعابد، عن رنين النواقيس، يبرد القمر، يقشعرّ البدن، تكفّ النّار عن بعث دفئها في الأفئدة المقرورة، يغدو الرّحيل نداء الزمن حتّى في الآذان التي بها وقر.

الآخر لم يعد، الأخرى برحت، الغابة أوحشت، وهذا المأفون باكير هرب، سرق وهرب، لماذا هرب؟ ليته بقي. وجوده، حتّى وهو اللّصّ، كان وجودًا. أُلعبانيته، حتّى في مكرها، كانت مسلّية. زيف إغرائه، بظهور جنّيّة الغابة، كان ينطوي على أمل.. كيف يعيش المرء بغير أمل؟ باكير كان يضحك عليّ، ليعد ثانية، وليضحك عليّ. إنّني، في وحشتي، أرضى حتّى بالضاحك عليّ! لتكن المرأة، وفيّة أو غير وفيّة، لتكن، وحين تكون، لو كانت، سأعترف.. سأقول لها: أخطأت!

تقدّمت صنوبرة، كان الظهر وتقدّمت صنوبرة، انشقّ لحاؤها، من بين اللّحاء المنشقّ برزت امرأة، قالت وهي تبتسم:

ــ أنا، يا كامل، جنّيّة الغابة التي تنتظرها.

تفرّس فيها، ابتسم لها، قال مرحّبًا:

ـ أهلاً سليمى! ما الذي جاء بك؟

قالت المرأة:

ـ أنا لست سليمى، أنا جنِّيَّة الغابة.

قال كامل:

ـ إنّما جنِّيَّة الغابة كانت وهمًا، وذهبت مع الوهم الذي كانته.. كامل، يا سليمى، وقع من حالق، ولن يعود ثانية إلى التحليق.. تعالي وابعثي البهجة من حولي، كرّة أخرى.

قالت سليمى:

ـ أنا لم أذهب لأجيء.. كنت معك ههنا. تنكّرت، يا كامل، في قناع باكير!

ـ وضحكت عليّ؟

ـ المرأة لا تضحك على الرّجل، إلاّ إذا ضحك الرّجل على نفسه.. لماذا أنكرتني وكنت حقيقتك؟

ـ مكتوب أن ينكر المرء جلده.. لكنّه بلا جلد لا يبقى جسد، وبلا امرأة لا يكون رجل. كامل غوى، أضلّته الغواية، فحش، تسربل بالفحشاء، والآن سيذهب إلى النبع الذي هناك ليغتسل، ليتطهّر، وعندئذ يمسي كاملاً آخر، له ما للإنسان من ذنوب، وله ما للإنسان من غفران.

ذهب كامل إلى النبع، خلع ثيابه، اغتسل، تطهّر، عاد

قويًّا، عاد شجاعًا، ابتلّت عروقه التي أيبستها الوحدة، انفرجت أساريره التي أضواها الهجران، تساءل: «هل انتقلت من وهم إلى وهم، أم أنّها الحقيقة هذه المرّة؟ جنّيّة القمر كانت وهمًا، سليمى حقيقة، اللّيلة ستستنير الغابة، أصابعها العشرة شموع عشر، وجهها البدر يعكس أشعّته، عنقها الفضّيّ، صدرها الصينيّ... آه كم انتظرت حتّى يكون في راحتيّ ذلك الصدر الصينيّ؟ بطنها السهل وأنا الخيّال عليه، سرّتها المعجاء كأس للنبيذ، خصرها الخيزرانيّ في استدارة خاتم الإصبع، حوضها النبع، فيه الولوج إلى جنّة عدن، فخذاها شمعدانان رخاميّان، قدماها تمثالان من بلّور، صوتها تغريدة بلبل، ثغرها مبسم ذهبيّ، شفتاها التماع سراب ولاريّ من ظمأ، اللّيلة يلوّح التفّاح في الوجنتين، اللّيلة أقضم التفّاح، أعرف الخطيئة، وبها الفرح يكون!»

عاد كامل من النبع، على رجاء القيامة إلى الديمومة، قيامته هو، ديمومة اللّذّة المشتركة. سيذهب أصيلاً إلى الصيد، دوشان ليس معه، الصيد ممكن بغير دوشان، هناك دجاج الغابة، البطّ البرّيّ، الحجل، الأرنب.. بعد الصيد الوليمة الصغرى، كأس وآخر وآخر، نار، دفء، وفراش.. الوليمة الكبرى على الفراش. ما أمتع الخيال عندما يصير واقعًا، ما أشهى الواقع حين يتطابق والخيال!؟

دهش حين أطلّ على الباحة: الجفت مركوز على باب

الكوخ، الأشياء التي سرقها باكير عادت إلى مواضعها، باكير نفسه يجمع الحطب، يجمع الأغصان معها، يساعد سليمى في بناء كوخ آخر، مقابل لكوخه من جهة الغرب. . الباحة نظيفة، مرشوشة بالماء، فراشه مرتّب، ثيابه معلّقة، المنديل الحريريّ مرفوع على سارية، كعلم على المكان، فرقة كشّافة هذه أم ماذا؟ قبيلة استوطنت الغابة أم رحلة فيها؟ حلم يقظة أم يقظة حلم!؟ لا هذا ولا ذاك؟ تدبير سليمى أم باكير؟ من باكير ومن سليمى؟ زوجان هما أم صديقان؟ سيّدة وخادم، أمّ سيد وسيدة؟ جاءا معًا بعد اتفاق؟ تلاقيا هنا فاتّفقا؟ عود على بدء، أم بدء لفصل جديد؟ وأنا!. . من أنا؟ ما مكاني هنا؟

قالت سليمى:

ـ مكانك هو مكانك يا كامل. . أين الغرابة؟

ـ في ما أرى!

ـ وماذا ترى؟

ـ كأنّني في حلم!

ـ وإذا كان الحلم واقعًا؟

ـ يكون العالم الصغير قد انفتح على عالم كبير. . متى جاء باكير وماذا يفعل؟

ـ يقوم بما كان يقوم به.

ـ أنتِ هو أم هو أنتِ؟

ـ هو هو، وأنا أنا!

ـ وزعمكِ أنّك باكير؟

ـ حتى لا تصدمك المفاجأة!

ـ صدمتني وانتهى الأمر.

ـ ستفيق منها هذا المساء..

ـ قبل وليمة العشاء؟

ـ وبعدها أيضًا!

ـ والوليمة الأخرى؟

ـ ستكون لك كما تصوّرتها وأنت على النبع!

ـ وتعرفين الذي تصوّرته على النبع؟

ـ مفروض في المرأة أن تعرف تصوّرات الرّجل.

ـ ومفروض في الرّجل أن يعرف تصوّرات المرأة.

ـ ربّما!

ـ لماذا ربّما؟

ـ لأنّه ربّما.

ـ وباكير هذا؟

ـ كلانا في خدمتك.

ـ لم أعد أفهم. .

ـ الفهم ليس ضروريًا دائمًا.

ـ هذه حكمة!

ـ وجنِّيَّة الغابة؟ ألم تكن حكمة؟

ـ كانت درسًا!

ـ لو يتّعظ الإنسان بالدروس!

ـ أنا اتّعظت.

ـ ليس بعد. . متى تذهب إلى الصّيد؟

ـ حالاً!

ـ خذ باكير معك. . جاءك بكلب آخر، لأجل ذئبة أخرى.

ـ الذئبة الأخرى هنا!

ـ وتقتلها أيضًا!؟

ـ أخشى أن تقتلني هي. .

ـ هي جاءت لتحبّك لا لتقتلك.

ـ أيّ نوع من الحبّ؟

ـ النوع الذي تفضّله أنت. .

ـ إذن إلى اللّيل!

ـ إلى اللّيل يا كامل، إلى اللّيل!

«أمل جديد!؟ هذا ليس أملاً، إنّه وعد. «إلى اللّيل يا كامل إلى اللّيل!» وماذا، يا كامل، في اللّيل سوى اللّيل؟ «ودخلت في ليلين: فرعك والدجى». ادخل، أيّها المشتاق، إلى فرح الشّوق، ادخل من باب اللّيل إلى باب الجسد، يا لجسدكِ الممشوق يا سليمى، كما ساعة بقيت على احتوائه؟ جنّيَّة المدينة أنت، فما انتظاري جنّيَّة الغابة؟ أن نهدر الوقت، في طلب المحال، فتلك هي الخطيئة الكبرى. نتعزّى بما نخترع، بينما الذي اخترعته الأرض، أمّنا، في المتناول، ونشيح بوجهنا عنه؟ نخرجه من رأسنا، لمجرّد نزغة مبهمة، كانت في رأسنا؟! أنت، يا باكير، تعرف سرّ سليمى، سليمى تعرف سرّك أيضًا، إلاّ أنّ السرّ لن يبقى سرًّا اللّيلة، لسوف يتكلّم أحدكما. الآن أنت، وفي اللّيل هي. المرأة تبوح في لذّة النشوة، ومع صعودها تبوح بما في أعماقها، تقول دون أن تطلب منها أن تقول، الفرس تحمحم تحت فارسها، المرأة تحمحم تحت خيّالها.. لتكونّن، يا كامل، ذلك الخيّال على تلك الفرس، وهذا، في جلوة الشبق، انتشاء للشبق، يعربد في الدم عربدة السكْر في الشرايين!»

توقّف كامل عن السير، نظر إلى وراء، كان باكير وراءه، سأله، كمن عَنّ له، عفويًّا، أن يسأل:

ـ مَن الأجمل، يا باكير: جنِّيَّة الغابة أم جنِّيَّة الحقيقة؟

قال باكير:

ـ لكلّ منهما جمالها.

ـ والأجمل بينهما؟

ـ تلك التي نحبّها.

ـ من تختار أنت، لو خيّرت؟

ـ التي في اليد.

ـ تحسب أنّ سليمى في اليد؟

ـ ليست في يدي، على كلّ حال.

ـ مَن تكون بالنّسبة إليك؟

ـ المرأة التي جاءت إليك.

ـ جئت معها أم بعدها؟

ـ أنا ظلّها!

ـ هل تركتني لأجلها؟

ـ تركتك لأنّني خفتك.

ـ بسبب جنِّيَّة الغابة؟

ـ بعد أن قطعت أملك من جنِّيَّة الغابة.. أنظر هذا الأرنب.. صوّب بسرعة، ولكن بدقّة.

صوّب كامل، أطلق، أصاب، تهلّل فرحًا، قال لباكير:

ـ كفى صيدًا اليوم، صار لدينا حاجتنا.

ـ كما تريد، لكن أنا سأصطاد في اللّيل.

ـ كي تذهب بعيدًا؟

ـ كيلا أعود قبل الصباح!

ـ وتترك سليمى وحدها؟

ـ هي التي تتركني وحدي!

صاح كامل به:

ـ من أنت يا ولد؟ ما هذا التبدّل؟ أمس كنت أبله، اليوم تخلّيت عن البله!

ـ لكلّ يوم دوره!

ـ ولحساب مَن تلعب هذه الأدوار؟

ـ لحسابي!

ـ من أجل الرّبح؟

ـ مالك عاد إليك.. إنّه تحت فراشك.

ـ من أجل ماذا إذن؟

ـ هواية!

ـ متى تذهب ليلاً إلى الصيد؟

ـ ليس قبل الوليمة الصغرى.

ـ وهل هناك وليمة كبرى؟

ـ أنت أدرى..

قالت سليمى التي كانت بانتظارهما وراء دغل قريب:

ـ بلى، يا كامل، أنت أدرى.. ما رأيك أن نذهب، ريثما يسلخ باكير هذا الأرنب، إلى التلّة المقابلة، لنتفرّج على الغروب من فوقها؟

أضافت:

ـ أنت تحبّ هذه التلّة، وأنا أحبّ ما تحبّ!

لم يرتح كامل إلى هذا الإيماء، ضاق صدره بالتلميحات، مع ذلك قال:

ـ كنت أحبّها يا سليمى، من أجل جنّيّة الغابة أحببت التلّة.. اليوم أحبّها من أجلك، لكن لماذا كلّ هذا الغموض؟ عرفتك صريحة، الآن أنت مبهمة. عرفت باكير أبله.. الآن أجده ذكيًّا.. قال لي إنّه يلعب دوره، ولحسابه، فهل تلعبين معي نفس لعبته، ولحسابك أنت أيضًا؟

توقّفت سليمى، نظرت إليه في عينيه، حدّقت في عينيه، ابتسمت بعد عبوس، قالت وهي تسير:

ـ وأنت!؟ لحساب من تلعب هذا الدور؟ لحسابك

طبعًا. إذن كلّ منّا يلعب دوره لحسابه.. هذه هي الحياة، فما الجديد، أو ما الغريب فيها؟ تعرف، طبعًا، قول الذي قال: الحياة مسرح، وكلٌّ منّا يؤدّي دوره عليه ويمضي.. دوري، هذا المساء، أن أكون معك، أن أحبّك، فما هو الغامض، أو المبهم، في كلّ هذا؟ تقول باكير ذكيّ، أنت أذكى، لأجل ذلك أتيتك، ولماذا آتيك، أيضًا؟ قل أنت: لماذا تأتي المرأة إلى الرّجل؟ هذا سؤال لا يُسأل، لكنّك، أنت تسأل، أنت رجل، إذن أنت ولد، كلّ الرّجال أولاد، لكنّهم مسلّون، وفي الفراش، عيب إذا قلت: «لذيذون»؟ لا عيب، لو أخذتْ حوّاء بمعيار العيب، لما كنّا نحن، وتصوّر الدنيا لولانا!

قال كامل:

ـ من تحصيل الحاصل، من النافل تمامًا، القول إنّ المرأة تأتي الرّجل لأنّها تحبّه، غير أنّ هناك ما هو أبعد من ذلك، وهذا الأبعد هو جوهر الحياة.. لولاه ما كانت، ولماذا، دونه، تكون؟ ما نفعها؟ ما قيمتها؟ إنّما، وهنا لا بدّ من الانتباه، هذا الجوهر ينقسم إلى جواهر، ومن جواهره العلم، والكفاح في سبيله، اكتشافًا وتطبيقًا... هكذا فهمت الحياة، كافحت فيها ولأجلها، إلى أن أدركت قيمة التفرّغ للكفاح..

قاطعته سليمى:

ـ بإخراج المرأة من رأسك!

سأل كامل:

ـ أليس الأجدى أن نفرز، في الفاكهة، المعطوب من السليم؟

ـ أي أن نرمي المعطوب خارجًا؟ المرأة فاكهة، بل فاكهة الفواكه، ومن الأجدى، بحسب رأيك، أن نرمي المرأة المعطوبة. وبكلمة أخرى: الخائنة، خارجًا، وهذا ما فعلته أنت، ثمّ ماذا؟ أخرجت امرأة لتدخل أخرى، أخرجت تلك التي من لحم ودم، لتدخل التي من وهم وخيال.. وما الذي حدث؟ قبض الرِّيح!

قال كامل متودّدًا:

ـ لا أحسبني، اللّيلة، سأقبض على الرِّيح..

قالت سليمى:

ـ ما جئتك اليوم، لأدعك اللّيلة تقبض على الرِّيح.

ـ هذا ما أنا واثق منه!

ـ إذن إلى اللّيل يا كامل، إلى اللّيل!

ـ ٥ ـ

سألت الغابة:

ـ ما الذي يحدث، في اللّيل، بين الرّجل والمرأة؟

أجاب الكوخ:

ـ تعالي، في اللّيل، تري!

ـ إذا تهيّجت سأقتلع الكوخ.

ـ عندما يتهيّجان، سيقتلعانه قبلك.

ـ والعاصفة، إذا ثارت الغيرة؟

ـ العاصفة الأخرى أقوى!

ـ عاصفة الجنس، أقوى من عاصفة الرِّيح؟

ـ بما لا يقاس!

ـ سأعصف، إذن، منذ الآن!

ـ وبذلك تفوتك فرجة العمر!!

ـ أنت تبالغ يا كوخ.

ـ سلي الفراش يخبرك اليقين.

ـ سألت الأشجار فقالت: نحن نرى ذلك الشيء بين وحش ووحش!

ـ الإنسان وحش الوحوش، يكفي منه السمع دون النظر.

ـ فإذا اجتمعا؟

ـ جنّت النزوة!

ـ رأيتُ ذلك الشيء في النهار.

ـ رأيت ما هو سالب.. الإيجاب في اللّيل يكون.

ـ صفْه لي.

ـ الوصف غير النظر.. سلي، أيّتها الغابة، أوراقي تجبك، فإنّها، من غُلمة، تضطرب!

ـ وأوتادك؟

ـ تتزعزع.. ولدى الصرخة الأخيرة تنخلع!

ـ شوّقتني أيّها الكوخ!

ـ تشويقي من فرط شوقي.. الأذن تسمع، والسمع

منسرب إلى الشعور.

ـ تسمع الأصوات؟

ـ الهمهمات قبلها. .

ـ وبعد ذلك؟

ـ تعلو الصرخات الصغيرة، ثمّ تعلو، ثمّ تعلو، إلى أن تكون الصرخة الأخيرة، من حلاوة الرّوح!

قالت الغابة:

ـ أنا أحسدك أيّها الكوخ.

قال الكوخ:

ـ أن ترثي لحالي، أفضل من أن تحسديني.

قال الفراش:

ـ «وحسدت» أهل العشق حتّى ذقته. .

قال اللّحاف:

ـ «فعجبت كيف يموت من لا يعشق!»

قالت الغابة:

ـ كفى وإلاَّ جننت.

قال كلّ مَن في الغابة:

ـ اعقلي أيّتها الغابة. . ها هي النّار قد أضرمت. .

كان اللّيل قد ليّل، ومن أطراف الغابة تعالى قرب مياه الينابيع نقيق الضفادع، مختلطًا بعواء أبناء آوى؛ وحول النّار بيدر من حطب، واللّهب المشرئبّ، أعطى لدائرة الباحة سياجًا من عتمة؛ وجذوع الصنوبر، من الوهج الحارّ المترامي، أفاحت شذاها؛ وجلال الصمت أسدل برقعًا على وجه الكون.. وفي كوخها، كانت سليمى تتزيّن عارية إلاّ من قميص شفيف؛ وباكير الذي يبكي ولوعًا من الداخل، قد نقع لحم الأرنب بالخلّ والتوابل.. وكامل المأخوذ بالعرس المقام، احتفالاً بدخْلته اللّيلة، يلقم النار حطبة بعد حطبة. ومن عقدة جذع، في شجرة صنوبر، كانت أفعى ترسل نظرات وانية، وعلى الأغصان المدلاة تتأرجح نجوم كالحباحب. ولمّا وقفت سليمى بباب كوخها، انبهر كلّ ما في الباحة، فصفّقت إيذانًا بقدوم الموكب، ومشت يتبعها جرْوا الذئبة، والكلب، والقطّة، ودبّة صغيرة هي هديّة باكير إليها، ليلة عرسها.

تقدّم صفّ من الأشجار، تبعه صفّ أعلى، ثمّ أعلى: جوقة الإنشاد اكتملت، المزاهر، الصنوج، الزمور، ضجّت الغابة بنشيدها الخاصّ، التهاليل الغابيّة، الزغاريد، توسّط باكير الباحة، رقص وهو مفتوح الذراعين، ركع، بقدم واحدة، نصف ركعة، اشتعلت النيران على أطراف الباحة، ومض شهاب كالبرق، تلألأت السماء، خطت سليمى خارج الكوخ، ضمّت يديها على

الطريقة البوذيّة، أعطت إشارة الانتهاء، هدأ كلّ شيء، فرغت الساحة، دارت حول النّار، وقفت مقابل كامل، انعكس اللّهب على فستانها الماسيّ، ومن جبينها المورّد، وجنتيها، وجهها المؤطّر بشعرها الأسود الطويل، المنسدل على كتفيها وظهرها، شعشع بهاء الشمس في الأصيل، نهض كامل، حيّاها، دعاها إلى الجلوس، قدّم لها كأس الخمرة المعتّقة، اقتطع لحم الأرنب، أطعمها بيده.. بدأت الوليمة الصغرى.

عند منتصف اللّيل.. دخل كلّ منهما كوخه، أعدّ كامل نفسه، كوخه، فراشه للقاء، مهّد مضجعه، تصوّرها ممدّدة، بطولها الزنبقيّ، فوق مضجعه، فكّر من أين يبدأ، بأيّة كلمات يبدأ، راح يختار الكلمات. يعرف، مع المرأة، نوع الكلمات، تدرّجها بين اللّطيف فالألطف، تحوّلها من الحشمة إلى غيرها، عند الممارسة أو خلالها، إنّما مع هذه الملكة، التي صيّرتها الغابة ملكة، نصّبتها، توّجتها، احتار كيف تكون الممارسة معها، بداية، وسطًا، وختامًا. ما هي الكلمات الملائمة، يغمغم بها هو؟ تغمغم بها هي؟ يقبّلها أوّلاً؟ يهمس بها في أذنها وهو يقبّلها؟ يقول لها: حبيبتي؟ تجيبه: حبيبي؟ تحبّه كما يحبّها؟ تشتهيه كما يشتهيها؟ ينزع عنها قميصها؟ يكتفي برفع قميصها من أدنى؟ يشمّره إلى فوق، أعلى فأعلى، حتّى ينكشف صدرها؟ تساعده على خلع قميصها من رقبتها؟ وتلك القطعة التي

تغطّي الحوض؟ ينزعها بلطف، أم يترك لها أن تنزعها بطريقتها؟.. يضمّها بلين؟ يضع يسراه تحت ظهرها، تاركًا يمناه طليقة؟ ماذا يفعل بيمناه؟ وبأنامله؟ يرعش مكامن اللّذّة بأنامله؟ وإصبعه الوسطى، في يده اليمنى؟ تتهيّج الملكة؟ تبدي تهيّجها؟ تخفي هذا التهيّج حفاظًا على الوقار؟ إلى متى يدوم وقارها؟ وبعد الوقار؟ بعد التمسيد والتمهيد؟ بعد دبيب نمل الأصابع على الظهر؟ بعد تهيئتها على ما ينبغي؟ يتمدّد، بخفّة فوقها؟ تتمدّد هي، بالشكل الملوكيّ، فوقه؟ وبعد؟ حين يحين الموعد؟ عندما يدور الماء في الصُّلب؟ يرفع رجليها؟ يترك لها حرِّيَّة الحركة برجليها؟

لهث كامل وهو يطرح على نفسه هذه الأسئلة، استراح لأنّ فمه ليس أبخر.. تأكّد، ممّا سمع من نساء، أنّ مذاق فمه مسك. ومذاق فمها كيف يكون؟ حركة خارج الكوخ، تهيّأ، تأدّب، اصطنع الوقار، انتظر، طال انتظاره، مدّ رأسه من باب الكوخ: لا أحد! عاد إلى الانتظار، عاد إلى اللّهاث: حركة! انصت! هي! آه من هي، من ذلك الصدر الشبيه بصدر فتاة صينيّة كاعب، تجمع بعضه على بعض في كوخه. توقّع أن تدخل سليمى، في كلّ لحظة، كوخه.. خاب توقّعه، بدأت هواجسه، شرعت ظنونه، فعلت فعلها في نفسه، في صدره، ضاق صدره.. خرج، مع الفجر، قاصدًا كوخها، كان باكير يقف على باب كوخها، موّه

خروجه. تظاهر بأنّه يقضي حاجة، وفي الصباح سألته سليمى:

ـ هل نمت جيِّدًا يا كامل!؟

«قحبة!»

ـ نمت جيّدًا يا سليمى، وأنت؟

ـ استغرقني النّوم.. كنت أنوي.. نعم! كنت أنوي.. لكنّ النّوم، وأنا تعبة من الاحتفال.

«ماذا كانت تنوي؟»

ـ إنّما الأعمال بالنِّيّات يا عزيزتي!

ـ صدقت يا كامل.. كانت نيّتي.. إنّما لا بأس! اللّيلة القادمة لن أكون تعبة مثل اللّيلة الفائتة..

ـ آمل ألاَّ يلمّ بكِ التعب!

ـ وألاَّ يلم بكَ أنت أيضًا..

«ألمَّ بي يا..»

ـ شكرًا على هذه العاطفة النبيلة.

ـ ليست عاطفة وحسب، رغبة! أرغبك قويًّا يا كامل!

ـ وأرغبك كذلك يا سليمى!

ـ ولكن ما بالك تتثاءب؟

ـ عطر الغابة يخدّرني.

ـ وما علاجه؟

ـ النّوم قليلاً!

ـ نم إذن.

ـ وأنتِ؟

ـ سأنام أيضًا.. عطر الغابة هذا.. إلى اللّقاء ظهرًا.

ـ إلى اللّقاء مساءً.

ـ كما تشاء!

ـ بل كما تشائين!

ـ أشاء لك العافية!

«كي أسهر ليلاً!»

ـ أبادلك المشيئة نفسها!

ناما، كامل نام حقيقة، سليمى تظاهرت بالنّوم، كلّ ليلة تقول له: «اللّيلة!». مضت عشر ليالٍ.. أكثر! ملّ كامل السهر، التعب، الانتظار الطويل، قرّر أن يهرب من سليمى كما هرب من غيرها. جنّيّة الغابة وهم، سليمى حقيقة. لكنّه كان قد قرّر إخراج المرأة من رأسه، فكيف عادت سليمى هذه إليه؟! في اللّيلة الخامسة عشرة دعته إليها، قالت له:

ـ ماذا قلت عن المرأة؟

ـ كتبت، في اليوم الأوّل: المرأة مراوغة! الآن أعترف: المرأة طيّبة، الرّجل دفعها إلى المراوغة.

ـ وفي اليوم الثاني؟

ـ المرأة كاذبة! الآن أعترف: المرأة تكذب للضرورة، الرّجل يكذب.. لغير ضرورة!

ـ في اليوم الثالث؟

ـ المرأة عاهرة! الآن أعترف: الرّجل أشدّ عهرًا، ولأنّه ذكر، فالمجتمع لا يدينه!

ـ وفي اليوم الرابع؟

ـ تساءلت: مَنْ جعل المرأة مراوغة؟

ـ وفي اليوم الخامس؟

ـ تساءلت: مَن جعل المرأة كاذبة؟

ـ وفي اليوم السادس؟

ـ تساءلت: مَن جعل المرأة عاهرة؟

ـ وفي اليوم السّابع؟

ـ استرحت!

ـ لا! لم تسترح! استحضرت هدى من الشّمال.

ـ هي التي حضرت إليّ!

ـ لا فرق. . لكنّك، أنت، فضحت سرّها، أليس عيبًا على الرّجل أن يفضح سرّ المرأة؟

ـ عيب!

ـ أخذت عليها أنّها تصرخ وهي معك. وهل الصراخ، مع الانسجام، يؤاخذ عليه؟

ـ لا!

ـ لماذا شهّرت بها إذن؟ هل لمجرّد الإثارة؟

ـ لم أقصد الإثارة لذاتها، جاءت في السياق. إنّني أمين، حين أحكي، على حكايتي. . بعد ذلك لا يهمّني شيء. . لقد تجرّأت على الجنس، ولكن الجنس، كما قلت غير مرّة، قاهر الموت، فلماذا نخاف الجنس؟ نلفّه بصرّة الزاد، ونخاف الحديث عن هذا الزاد؟ الجنس زادنا الآخر، منه نعمة الحياة، لذّتها، خصبها، ديمومتها. . لم لا نخرجه إلى العلن ليكون صحّيًّا، بدل أن ندسّه بين جلدنا والعظم؟ لماذا تكتم عليه حتّى يفسد، أو حتّى يصبح لاصحّيًّا!؟

قالت سليمى:

ـ دفاعك هذا لا يبرّئ ذمّتك، لماذا اتّهمت هدى بالزنى، ولم تتّهم نفسك أنت الزاني معها؟

ـ أخطأت!

ـ تتّهم الأنثى، تبرّئ الذكر، تعترف بالخطأ على أمل أن يغسلك اعترافك، أن يطهّرك، لتعود، بعد هدى، تتّهم.. كرمة، رايا، نعيمة، رائفة، ضامرة، زهوة، هزار، نائلة إلى أن تصل إليّ، أنا سليمى، التي انتظرتها كلّ هذه اللّيالي!

ـ أخطأت، أخطأت، أخطأت!

ـ وهزار التي دفعتها الحاجة إلى أن تلعب من وراء ظهر زوجها، وزوجها يغضي، أو لا يغضي، هذا لا يهمّ، كيف لم تقدّر حاجتها؟

ـ لم تغضبني لعبة هزار، الذي أغضبني انقلابها على هذه اللّعبة.. كنت أريدها. فلماذا أخذت مالي ورفضتني؟

ـ وهل تحسب أنّها سلعة تباع؟ لماذا، يا كامل، تسلّع المرأة، وتعتقد أنّ هذه السلعة تشترى، من دون حقّها في أن تحتجّ، هي اللّحم والدم، على هذا التسليع، الذي يفضي إلى التشييء؟

قال كامل:

ـ الدعارة أقدم مهنة في التاريخ، وهل المرأة التي تبيع جسدها في سوق الدعارة، إلاّ سلعة معروضة للبيع؟ أعرف الظروف التي تدفع إلى هذا الامتهان، أستنكرها، أحتجّ

عليها. إلاَّ أنَّ وصف المرأة الداعرة هو وصف لواقع، لا يمكن تجاهله.

ــ والفحش في هذا الوصف، أمانة للواقع أيضًا؟

ــ إنّه تبيان للدرك الذي تنحطّ إليه المرأة الفاحشة، وهذا من الأمانة للواقع أيضًا.. لماذا نترك الغطاء على القدر، إذا كان ماء القدر يغلي؟ هناك ما يسمّى صمّام الأمان! ليست غايتي التنفيس، وليست كذلك الحقن، غايتي تعرية الأشياء، تخزيق الثياب المزيّفة، نزع القشور اليابسة، جعل القلوب تنبض بطلاقة، بسلاسة، بغير وهن، من دون عناء. غايتي رفع الشحوم عن الحجاب الحاجز، تنشيط الدورة الدمويّة، قول الأشياء بشكل صادح، قويّ، مبشّر بالفجر كصياح الدِّيك، كشْفُ الأدران عن الأورام، تظهيرها، تسهيل مباضع الجرّاحين في بترها، وصولاً إلى الشفاء المنشود.. ستقولين غيرك حاول ففشل، لماذا تحاول أنت؟ قد تضيفين: الأجسام تسرطنت، العافية وئدت، الشفاء استحال، فلماذا تتعب نفسك في ما لا يجدي؟ وأجيبك: في البدء علينا كشط الخبث الذي تراكم على القروح، بعد ذلك يأتي فقء هذه القروح، ثمّ تعريضها للشّمس، حتّى تجفّ وتندمل.. العري الجسديّ على صفحات الصحف والمجلاّت، الدعر في المواخير، في البيوت السرِّيَّة، في الكباريهات، في علب اللّيل، فلماذا لا نحرّك ساكنًا، لا نثير الفضائح، لا نخشى على الغرائز أن

تثار في تلك الأجواء الموبوءة، ونخشى عليها في الكلمات الجهيرة، الصريحة، التي مع الكشف، تنهى عن المكشوف، بدلالة الحوار المفتوح، وإيماءة الرّأي، حتّى في خلافه، وجداله، مع الرّأي الآخر؟ لنخرج من هذا الكوخ يا سليمى، أحسّه هواء من رصاص، يضغط بعنف على صدري، هيّا نخرج إلى الصيد، نرتاد مجاهل هذه الغابة التي ألفتها حتّى صارت بيتي الكبير.

قالت سليمى:

ـ نسيت أنّني الملكة؟

ـ كان ذلك في اللّيلة الأولى.. جننت فخيّل إليّ أنّني في يوم زفافنا.. لماذا علينا أن نعيش دائمًا في عاديّة الأشياء؟ لا بدّ، لأجل تجدّدنا، من رؤى فانتازيّة، هي التهاويل الملوَّنة التي تزوّق رتابة حياتنا.

ـ من أجل ذلك ابتدعت جنِّيَّة الغابة؟

ـ ابتدعت أنثى من خيال، هي التعويض عن أنثى من واقع.. عشت وهمًا حلوًا، ليتني بقيت فيه.. الوهم، أحيانًا، سباحة في بحر أحلام ليست من هذا العالم العتيق، البليد إلى درجة الإملال.. لنخرج إلى الصيد يا سليمى، ولنأخذ باكير معنا.

قالت سليمى بدَلِّ المرأة:

ـ ألا تريد أن ينفرد أحدنا بالآخر، في مكان ما، بعيد بعيد، في هذه الغابة التي لا أعرف لها تخمًا محدّدًا؟

ـ أنا أريد، أنت التي لا تريدين. لديك وقت بعد للاستمرار في اللّعب بأعصابي!

ـ بأكثر ممّا فعلت جنّيّة الغابة؟

ـ قلت لك إنّ جنّيّة الغابة كانت وهمًا «هذيت به من بعض أوهامي!»

ـ أرى أنّ شوقًا يقتَادك إلى الوهم، من حين إلى حين!

ـ هذا الذي تقولينه حقّ.. بعض الوهم، لبعض الوقت، يخلّصنا من الرتابة.. لنخرج إلى الصيد.

خرجا، كان باكير، كأنّما على موعد، ينتظر خارجًا. من هو باكير هذا؟ «خادمي عندما لا تكون هي، خادمها عندما تكون هي. منعني، تلك اللّيلة، من الوصول إليها.. أيّ سلطان لها عليه؟ سرّ آخر من أسرار هذه الغابة؟ متى تنكشف لي أسرار هذه الغابة؟

أيّتها الغابة، يا ملاذي! يا بيتي، يا وهمي وحقيقتي، يا عالمي المسحور، متى ينكشف لي سحرك، فيستريح خيالي من عناء تفصيل الفضاء عباءة من قصب الذهب!؟»

قال باكير:

ـ إنّني أنتظر، والكلب، معي، ينتظر، يا بهيّة بين

النساء!

قالت سليمى:

ـ أنا جاهزة يا باكير، يا ولدي الأمين، لكن لا داعي لذهابك معنا.

قال كامل الذي عاد من رحلته في قارب السحب:

ـ أن يذهب باكير أو لا يذهب، فهذا سيّان عندي!

قالت سليمى:

ـ حسبتك لا تريده أن يذهب.. فقد تكون.. من يدري!؟ رجل وامرأة في غابة.. قد تكون.. وقد أكون.. ذكر وأنثى في غابة، من يدري يا كامل!؟

قال كامل:

ـ ليت الذي أدريه، تدرينه أنت أيضًا يا سليمى!.

سألت سليمى:

ـ هل في الغابة ينابيع؟ قد أستحم.. ومن يدري!؟

ـ في الغابة ينابيع كثيرة، وأنا أدري!

ـ وفيها مهاد من عشب يابس للنوم؟

ـ ستنامين؟

ـ وحدي!؟

«سليمى تسأل، وعليك يا كامل أن تجيب، بماذا تجيب؟ حذار من الإجابة المتسرّعة! دقّق في الإجابة جيّدًا. قالت «وحدي!؟» تقول لها: «أنا معك!؟» أين الجدّ في ما تقوله وأين المزح؟ اللّعبة إيّاها!؟ اللّعبة من جديد!؟ ومن جديد تبني قصرًا من أكواز الصنوبر؟ جنّيّة غابة أخرى؟ ولِمَ لا؟ جنّيّة آدميّة، لها من رهافة الحسّ، بحيث تعيرك من رهافة حسّها، كي تتلظّى أنت، في الوقت الذي تترمّد هي.. وهذه اللاّأدريّات؟ إنّها تدري، أنت الذي لا تدري، ولأنّك لا تدري ابق على مسافة.. ابق بعيدًا، إلعب لعبتك أنت الآخر!»

انطلقا إلى الصّيد، الكلب معهما، فتحا طاقات بين الأشجار، بين الأدغال، قفز أكثر من أرنب، طار أكثر من حجل، صوّب كامل، أحكم التصويب، أطلق.. لا شيء! اليد ترتعش! ضحكت سليمى وقالت:

ـ ما بالك ترتعش؟

«ماذا أقول؟»

ـ هل أنت محموم؟

«بماذا أجيب؟»

ـ لنجلس فنسترح..

جلسا! نظرت إليه، نظرت في عينيه، أشاح بوجهه كيلا

ترى عينيه «خاطئة الأعين وما تخفي الصدور!». في صدره شوق، في عينيه جمر. ألا تُعدى، هذه الأنثى، بشوق الذكر؟ ألا يلذعها الجمر؟ ألا تستشعر الرّغبة؟ تكتم رغبتها إلى ما بعد الاستحمام؟ تستحمّ وتنام؟ تتضجّع؟ تبقى أنت واقفًا؟ تأخذها بالقوّة؟ بماذا تعود عليك القوّة إذا كانت تتمنّع؟ تردّك خائبًا، فتطعن كرامة الرّجولة فيك؟ تبقى مرتعشًا كورقة غار في مهبّ ريح جبليّة؟ «ما فاز باللّذّة غير الجسور» كن جسورًا.. كن جسورًا.. كن.. كن.. شاء أن يكون، همّ بأن يكون، وإذا باكير يبرز بغتة:

ـ ماذا تريد سيّدتي؟

قالت سليمى:

ـ اسأل السيّد ماذا يريد؟

قال باكير:

ـ ماذا يريد سيّدي؟

ـ الذي تريده سيّدتك.

ـ سيّدتي لا تريد شيئًا.

ـ لا شيء إذن..

قالت سليمى:

ـ انصرف يا باكير.. وأنت يا كامل، تراني عارية وأنا أستحمّ؟

ـ استحمّي فأنصرف. .

ـ تنصرف قبل أن أستحمّ.

ـ سأفعل.

ـ وإذا احتجت إليك؟

ـ ألبّي الحاجة فورًا.

ـ مَن الذي قال: «وتنشّفت بنور!»؟

ـ لست أنا!

ـ مَن يناولني ثيابي كيلا أخرج عارية؟

ـ وماذا لو خرجت عارية؟

ـ تراني عين الشّمس. . من بين أوراق الصنوبر!

«عليّ أن أمشي، لا بدّ أن أمشي، . وإلاَّ قتلتها أو قتلت نفسي، تدينني حتّى كأنّي صرت فيها، تبعدني حتّى كأنّني نأيت عنها. تقول غدًا، فإذا جاء الغد قالت بعد غد، إنّها ليست هند، وأنا لست عمر بن أبي ربيعة. أنا إنسان من هذا الزمان، من هذه الغابة، ومن مدينة واحدة. إنّني بشر، وهي بشر مثلي، لي ولها نفس الغرائز، ذات المشاعر، فلماذا هذه الأحبولة التي بها تريد خنقي؟ أن تخنقني أستريح. الموت، في لعبة اللّذّة، راحة، شرط أن تكون لذّة لتكون راحة. أمّا التأرجح، بين صدّ وردّ، بين إدناء وإقصاء، فهذا ما لم تتحمّله أعصابي بعد. . لقد هربت من

المرأة مرّة، والأفضل أن أهرب منها كلّ مرَّة!»

قالت سليمى وهي تتمطّى:

ـ بماذا تفكّر يا كامل؟

ردّ بجفاء:

ـ ليس بك على كلّ حال.

قالت:

ـ وليس بجنِّيَّة الغابة أيضًا.. قلت إنّها كانت وهمًا من بعض أوهامك..

ـ هذه مقولة شاعر وليست مقولتي.

ـ تعرف مصير ذلك الشّاعر؟

ـ الموت بسرطان الدم!

ـ ولماذا تريد أن يتسرطن دمك أنت أيضًا؟

ـ هذا سؤال يُسأل يا سليمى، وهو موجّه إليك: لماذا تريدين سرطنة دمي؟

ـ معاذ الله.. ما تعانيه حالة فراغ.. أخرجت المرأة من رأسك، ملأته بدلاً عنها بجنِّيَّة الغابة.. هذه كانت وهمًا، وعليك أن تبحث عن وهم آخر لا عن حقيقة!

ـ تعبت من الأوهام في رأسي!

ـ هذه على شاكلة: «تعبت من الأحلام في جسدي!» لشاعرك الذي تسرطن.

ـ أنا لم أتعب من أوهامي وأحلامي.

ـ أنا، الآن، وهمك وحلمك! أنت، يا كامل، تشتهيني، ولا أكذّبك، فأنا أيضًا، أشتهيك، لكن على طريقتي لا طريقة جنيَّة الغابة.. تعال إلى جانبي!

ـ لست فراشة يجتذبها ضوء قنديل..

ـ مغالطة! الاحتراق واحد، في مثل حالك!

ـ أتركك وأطفئ نفسي في حضن أيّ عاهرة في المدينة.

ـ وصدر تلك الصينيّة الذي هو صدري؟ تعال يا كامل، تعال.. الرمّان المبرعم في صدري، بينما أنا مستلقية على ظهري.

ـ مستلقية تحتي!

ـ لا تشترط.. دع أفعاك تتقلّب كما يروق لها.. إنّما احذر الأفعى، ففي «أنيابها العطب!»

ـ أن تتقلّبي فتلك هي الأمنية «من يركب البحر لا يخشى من الغرق!» كوني أفعى، وليكن سمّك قاتلي!

ـ وإذا أشفقت عليك؟

ـ لا تشفقي!

ـ إذن «ويلي عليك وويلي منك يا رجل!» اقترب، إنزع ثيابك وأنت تقترب.. وسأنزع ثيابي ريثما تقترب منّي.

راح كامل ينزع ثيابه.. راحت سليمى تنزع ثيابها. صرخت، فجأة، وتستّرت: هذا باكير مرَّة أخرى!

صاح كامل:

ـ اللّعنة على حوّاء!

ضحكت سليمى وقالت:

ـ ولِمَ العجلة يا آدم؟ لماذا جئت يا باكير؟

قال باكير:

ـ كي أرى آدم وحوّاء وهما يأكلان التفّاحة!

قالت سليمى:

ـ سمعت يا كامل!

قال كامل:

ـ كلّ شيء بتدبيرك يا سليمى!

ـ ٦ ـ

قالت سليمى لباكير:

ـ اذهب إلى أرضي، وأحضر لنا لحمًا وفاكهة.

قال باكير:

ـ وماذا يريد السيّد أيضًا؟

قال كامل:

ـ انتهت المهزلة يا باكير، أيّها الخادم الأمين، لا أريد شيئًا يا بنيّ.

قالت سليمى:

ـ باكير ليس خادمًا، إنّه مزارع في أرضي، أرسلته إليك، كيلا تبقى وحيدًا مع الوحوش، في هذه الغابة!

قال كامل:

ـ توهّمت أنّني التقيته مصادفة.. فإذا هو رسولك إليّ.

قالت سليمى:

ـ إنّه رسول المرأة إلى الرّجل، فقد كانت، وأنت تخرجها من رأسك، تعلم أنّها ستعود إليه، فهذه يا كامل شرعة دنيانا، وعبثًا حاولت الهرب، وعبثًا تخيّلت نساء، ونسجت قصصًا لهؤلاء النساء، وعبثًا أيضًا رميتهنّ بكلّ فاحشة، وحكمت عليهنّ بقسوة، ولذت بالوهم تعزية عن الحقيقة، جنّيّة الغابة كانت وهمًا، والمرأة تبقى حقيقة. أنا، يا كامل، هي الحقيقة. أنا البداية والنهاية، وصدر تلك الصينيّة صدري.. حين ينصرف باكير، سأكشف عن صدري، وأضمّك إليه.. دع الصّيد، فاليد الثابتة وحدها تصطاد، ويدك مرتعشة في توقها إلى نهد المرأة، النهد الذي حسبت، في خيالك المريض، أنّه مات!

قال باكير:

ـ ماذا أفعل، الآن، سيّدتي!؟ إنّني بشر، أنا الآخر، ولي من القوّة.. إلاّ أنّني.. لا يهمّ.. لا يهمّ سيّدتي.. الأفضل أن أنصرف، في صالحكما، أنتما الاثنين، أن أنصرف..

ابتسمت سليمى وقالت:

ـ في صالحنا، نحن الثلاثة، أن تنصرف يا باكير.. أن تهرب أنت الآخر..

قال باكير في نفسه «أهرب من النهد إلى النهد!»

ـ سأنصرف، سيّدتي، بغير هرب، فقد تعلّمت في هذه الغابة درسًا لن أنساه: لا فائدة من الهرب!

قال كامل:

ـ وأنا تعلّمت، في هذه الغابة، درسًا لن أنساه أيضًا: المواجهة، ولا شيء سواها!

قالت سليمى:

ـ وأنا مثلكما، تعلّمت، في هذه الغابة، درسًا باقيًا: أن تكون المرأة حبيبة أفضل من أن تكون ملكة!

انحنى باكير وانصرف، كانت الراعية على طرف الغابة، وكان مشوّقًا إليها.. قرّر، في رعدة اشتهائه، في لظوة حرمانه، أن يتزوّج، أن يستقرّ، أن يكون له، كما للآخرين، نهد.. أن يمرّ براحته عليه، أن يستمتع به، أن يلتقمه حتّى يموت فوقه، وبعد الموت، كالآخرين، يحيا. وبهذا وحده يعتبر نفسه قد عاش، هو الذي، في تمثيليّة جنّيّة الغابة، لعب دور حياته، كالممثّل الجيّد، الذي يعرف كيف يلعب دور حياته، ويعيش بعد ذلك على ذكراه!

بعد باكير، جاء دور كامل. قرّر، هو الآخر، أن يرحل، أن يهدم الكوخ، يترك أشياءه لمن بعده، للذين يهربون مثله، لمن يجدون في الغابة فسحة للعزاء، للرّجاء، للتأمّل، للتفكير، للحلم، لابتداع جنّيّة ما، تأتي في ليلة ما، ويكون لهم «باكير» هم أيضًا، النبيه، الأبله، الأمين،

المرافق، الدليل، الآخر، الذي يحتاجه الآخر، لأنّه ما من إنسان عاقل بقادر أن يعيش بمفرده، إلاً أن يكون ناسكًا.. والنسك، بدوره هرب، خروج من الحياة بالجسد، قبل الخروج منها بالرّوح، وهو، كامل، يرغب الآن أن يعيش الحياة بالجسد والرّوح معًا.

وبعد باكير وكامل، جاء دور سليمى، قرّرت، هي الأخرى، أن ترحل.. ولماذا تبقى؟ لمن تبقى؟ كامل اكتشف لعبتها، عرف دورها، اعترف: «أجادت لعب دورها!» لم يقل ذلك علنًا، قاله سرًّا، أدرك أنّ المرأة اكسير الحياة، وأنّها تبقى نظيفة مهما يحاول تلويثها، تظلّ بهيّة رغم محاولاته لتلطيخها، تستمرّ مشعّة ولا سبيل لإطفاء نورها، وليس له أن يحكم لها أو عليها، ففي المآل، لا بدّ للرّجل من امرأة، كما لا بدّ للمرأة من رجل!

قال بعد أن هدم الكوخ، أطفأ النار، أطلق الكلب، مسّد على ظهر القطّة، داعب جرْوي الذئبة:

ـ لم يبق ما أعمله سوى العودة إلى المدينة.

قالت سليمى التي لحقت به:

ـ وأنا لم يبق لي سوى العودة معك..

ـ معي!؟

ـ في طريق واحد.

ـ إلى أين؟

ـ إلى حيث تكون!

ـ ولكن هذه تضحية!

تفرّست فيه سليمى وقالت:

ـ المرأة، يا كامل، هي التضحية!

وردّدت الغابة:

المرأة هي التضحية، المرأة هي التضحية، المرأة هي التضحية!.

ـ انتهت ـ

بودابست / ١٠ تشرين أوّل (أوكتوبر) ١٩٩٩